INSTITUT DU MONDE ARABE

معهد العالم العربي

كرسي المعهد

King Faisal PRIZE

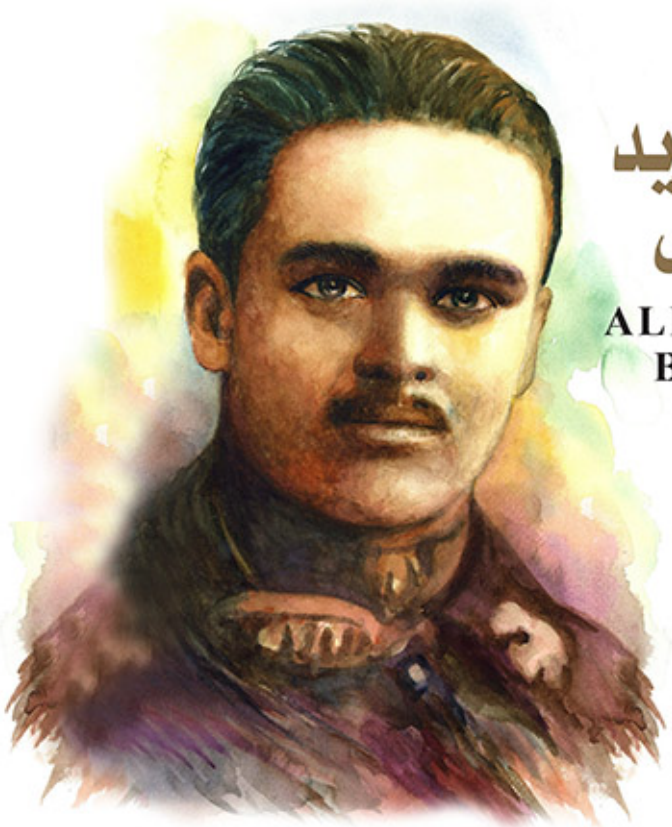

ألفريد بيل

ALFRED BEL

محمد الغزواني مفتاح

كتاب وكتاب 100

17

ألفريد بيل

الكتاب : ألفريد بيل
المؤلف : **د. محمد مفتاح**
الطبعة : الأولى 2020
عدد الصفحات : 128
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 2020MO2781
الترقيم الدولي : 978-9920-627-58-0

جميع الحقوق محفوظة

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT
DU MONDE
ARABE
معهد العالم العربي
كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

ألفريد بيل

د. محمد مفتاح

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

المحتويات

تقديم..... 11

القسم الأول : التحليل

الفصل الأول : مقتضيات السياق 15

تمهيد..... 15

1 - السياق السياسي..... 16

2 - السياق الثقافي 18

أ - علم الاجتماع..... 19

ب - علم الأناسة..... 19

جـ - الفلسفة الوضعية..... 22

3 - المسار..... 25

4 - مَدَار الأفكار..... 38

الفصل الثاني : أطروحات..... 43

تمهيد..... 43

1 - القبيلة 44

أ - القبيلة العربية المشرقية..... 47

ب - القبيلة البربرية الغربية..... 50

جـ - الأمة..... 54
2 - العقيدة..... 57
تمهيد..... 57
أ - ما قبل المرابطين..... 58
- إمارات تابعة..... 58
- إمارات مستقلة..... 59
ب - المرابطون والعقيدة..... 61
- عقيدة السلف..... 62
- عقيدة الأشعري..... 63
- الواقع والمثال..... 64
جـ - تركيب..... 65
3 - الشريعة..... 68
إضاءة..... 68
أ - مغالطة..... 68
ب - خِدَاعُ الوثيقة..... 70
جـ - عَمَل أهْل المدينة..... 73
د - مصارعة..... 74
هـ - موافقة..... 76
خاتمة..... 78

الفصل الثالث : صدق الشهادة..... 79
1 - في فرنسا..... 79
2 - في الجزائر..... 80
3 - أهم آثاره..... 84
4 - خواص فاسية..... 85
5 - عودة إلى الجزائر..... 87
6 - إلى دار الهجرة..... 91

القسم الثاني : الترجمة

تمهيد..... 97
الفصل الأول : لباقة السياسة..... 101
1 - دلائل الوجود..... 101
2 - نُظم وتنظيمات..... 106

خلاصات وآفاق..... 117
المصادر والمراجع..... 123

عتبـة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزاً مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة

على مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تمامًا أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشينًا لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئه الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

أمين عام الجائزة	مدير عام المعهد
عبد العزيز السبيل	معجب الزهراني

تقديم

هذا الكتاب يتمحور حول شخصية أسهمت بحظ وافر في ربط الصلات بين ثقافتَي عدوتَي شمال البحر الأبيض المتوسط وجنوبه. ذلك هو السيد ألفريد بيل.

جزّأنا الكتاب إلى قسمين: خصصنا القسم الأول لِـ "التحليل"، والثاني لِـ"الترجمة". يشتمل الأول على فصلين. يتناول أحدهما ما دعوناه بـ"مقتضيات السياق" التي هي السياسة والثقافة والعلوم، وقد حددت تلك المقتضيات مساره، ومدار أفكاره. وقد اعتنى صِنْوُه بـ"أطروحات" كبرى هي من صميم اهتمامات الفكر العربي، تِلْكُم هي: "القبيلة"، و"العقيدة"، و"الشريعة".

وأما القسم الثاني ففيه فصلان أيضاً، ترجمنا في أولهما نصوصاً لألفريد بيل مقتصرين على ما يحكي فيه عن:

"أسطورات مؤسسة"، أو عن "صناعة الفخار" بكل تفاصيلها، وهما نصّان نموذجيان للدلالة عن:

"لباقة السياسة"، و"كياسة الاستدراج"، كما عَرَّبْنا نَصّاً لجورج مارسييه تأبينيّاً مكتوباً بالحبر والدموع؛ وهو تعبير عن

"صدق الشهادة" في حق صديق صدوق في كل أفعاله وأعماله.

الفصول المكتوبة أو المترجمة - المعرَّبة إلى: "قارئ عام يقظ" من جهة، وإلى قارئ لبيب منتبه إلى الأبعاد والمرامي، نرجو أن يدفع به: "فضوله إلى المزيد من البحث المعمق".

سعينا أن نعزز بهذا الكتاب المجهودات الخالصة المخلصة، من قِبَل جائزة الملك فيصل ومعهد العالم العربي، المبذولة لنشر فكر التسامح، ولتبديد الترهات الصَّحاصِح.

في 1 أكتوبر 2019 م/ الموافق 2 صفر 1441هـ

محمد مفتاح

القسم الأول
التحليل

الفصل الأول
مقتضيات السياق

تمهيد

يفرض التصور الذي كونّاه للحديث عن ألفريد بيل أن نتعرض للسياق الذي نشأ وترعرع ومارس فيه أدواره، متأثراً به حيناً، ومؤثراً فيه حيناً آخر.

لهذا فإننا سنخصص فقرات قصيرة تحتوي على معلومات تاريخية متداولة حول السياق، يعرفها الناس -حتى العوام- وما فعلنا ذلك إلاّ لأن الأحداث التاريخية تستبطن كثيراً من آثاره، وأما السياق الثقافي فقد قدمنا فيه أفكاراً جديرة بالاستيعاب والتأمل، لأنها تنبّه إلى دور الأساطير المؤسسة، وإلى ضرورة الإلمام بالأصول المعرفية في تشكيل الفلسفات والرؤى. هكذا نعتقد أن خفّة الانتباه إليها هو ما أدّى ويؤدّي إلى الاختلاف والخلاف، وإلى الأحكام الجاهزة، وإلى التعصب المقيت.

1 - السياق السياسي

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر تطوراً نوعياً للنظام الرأسمالي ببلدان أوربا الغربية التي اتجهت في جو من التنافس الشديد للحصول على المحميات والمستعمرات، على أن التوسع الاستعماري ركز على قارتي آسيا وأفريقيا؛ وكان لفرنسا وإنجلترا نصيب كبير منها، مما أغضب ألمانيا التي كانت لها مصالح مهمة في بعضها، كالمغرب، حيث نافست بشدة فرنسا فيه لذا زار إمبراطور ألمانيا گيوم الثاني يوم 31 مارس 1905، مدينة طنجة، وأكّد عزم ألمانيا على حماية مصالحها في المغرب. وهكذا خُلقت أزمة بين فرنسا وألمانيا، انتهت في فبراير 1911، بتخلي ألمانيا عن المغرب لفرنسا، مقابل تنازل فرنسا عن جزءٍ من مستعمرة الكونغو لألمانيا.

انفردت فرنسا بالمغرب، وبدأت تمارس ضغوطاً على المخزن، بلغت أهدافها بتوقيع السلطان على معاهدة الحماية في 30 مارس 1912، ثم عقدت فرنسا وإسبانيا معاهدة مدريد في نوفمبر 1912، حددت فيها مناطق نفوذ كل منهما في المغرب.

شكّلت الأزمة المغربية إحدى أخطر الأزمات السياسية الدولية التي سبقت الحرب العالمية الأولى، في حين عُدّت الأزمات البلقانية السبب المباشر لاندلاعها.

نتج عن الامتداد الزمني للحرب (1914-1918) اللجوء للولايات المتحدة الأمريكية للحصول على الأسلحة والذخيرة والمواد الغذائية الضرورية للاستمرار فيها، وقد استغلّت أمريكا هذه الفرصة، فدخلت إلى جانب الحلفاء -خاصة بعد خروج روسيا منها بسبب ثورتها البلشفية-، وقد حُسمت الحرب لصالحهم.

ترتب عن الحرب تحوّلات عميقة، أهمها الاقتصادية، إذ تراجعت مكانة أوروبا في العالم لانهيار اقتصادها، ومن أجل إعادة بنائه نَهجت سياسة الاحتلال القائمة على استغلال ثروات المحتلّات المادية والبشرية. في حين انتقل مركز الثقل الاقتصادي لفائدة قِوى رأسمالية جديدة، على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية واليابان اللتان سخّرتا إمكانياتهما الاقتصادية لتلبية الحاجات المتزايدة لأوروبا، وعرفتا ارتفاعاً متواصلاً في الإنتاج، وتزايداً في حجم المبادلات التجارية والاستثمارات.

كانت الحرب العالمية الأولى سبباً في دخول الدول الرأسمالية مرحلة تدهور، طغت فيها الأزمات الاقتصادية، كان أكثرها حدّةً أزمة 1929، التي انطلقت في الولايات المتحدة الأمريكية، ثم نالت من الدول الأوروبية المرتبطة بالأسواق المالية الأمريكية، وخاصةً النَّمْسَا التي انهار مصرفها

المركزي في مايو 1931، ونفس الشيء حصل في ألمانيا في يونيو 1931.

ومن هذين البلدين انتقلت العدوى إلى باقي الدول.

أسهمت الأزمة في إضعاف الأنظمة البرلمانية الديموقراطية من جهة، وتقوية الأنظمة الديكتاتورية، مثل النازية والفاشية من جهة أخرى.

رأت الدول الديكتاتورية حلاً لأزماتها، لكنّ توجّهها هذا اصطدم مع الشعوب القاطنة في ذلك المجال، وبمصالح الدول المستفيدة من الوضع القائم.

تَسَبَّب التوسّع النازي والفاشي في اندلاع حرب عالمية كبرى امتدت من 1939 إلى 1945، وقد مرّت بمرحلتين، أولاهما لصالح دور المحور، وثانيتهما لصالح الحلفاء.

2 - السياق الثقافي

سنشير إلى بعض معالم السياق الثقافي العلمي الذي عاش فيه ألفريد بيل، ونهل من مصادره، على أننا سنقتصر على معلمين اثنين، أحدهما العلوم الاجتماعية الإنسانية، وثانيهما الأصل الفلسفي المدعو بأصول المعرفة (الإبستمولوجيا).

أ - علم الاجتماع

ومن بين العلوم الاجتماعية ما يتعلق بالدين. ومن بَرَزَ في هذا الميدان إميل دوركايم[1]، الذي ألف كتاب: "الأشكال الأولية للحياة الدينية". وقد قدم في هذا الكتاب أطروحات شهيرة. الدين أحد مكونات التماسك الاجتماعي، والمجتمع[2] أساس الدين، والفرد له وظيفة ودور ووضعية.

ب - علم الأناسة

من بين العلوم الإنسانية الاجتماعية **علم الأَنَاسَة** (الأنثروبولوجيا)[3] ما يهمنا الآن هو العلم الذي يبحث في المجموعات الإنسانية ذات التاريخ، واللغة، والثقافة المشتركة، مثل الأمازيغ المعبَّر عنهم بالبربر القاطنين في منطقة الريف، وإقليم سوس، والأطلس المتوسط، والكبير، والصغير، وقد التحق بهم وافدون من المشرق على حقبتين أساسيتين، إحداهما حقبة الفَتْحِ، وثانيتهما في القرن الحادي عشر[4].

---

(1) Emile Durkheim (1858-1917), voir : Jean-François Dortier, *Le Dictionnaire des sciences humaines*, Delta, 2007.

(2) عبر دوركايم بـــ"الله" وقد تجنبنا الترجمة الحرفية.

(3) وهي أنواع عديدة: Anthropologie.

(4) وهذا الوضع في المغرب الأقصى له ما يماثله في المغرب الأدنى (تونس)، وفي الأوسط (الجزائر).

مجال شمال إفريقيا نموذج أمثل[1]، بُنِيَتْ عليه تصورات عرقية فيها بعض الحقيقة، وفيها كثير من الأوهام المغرضة، وكثير من الأبحاث التي أنجزها الفرنسيون حول القبيلة، والقبيلة والزاوية (التصوف)، والقبيلة والمخزن تدخل في هذا الإطار.

ما يجب التأكيد عليه هو أن علم الاجتماع وعلم الأَناسة، وخصوصاً الوصفية، يعتمدان على الملاحظة المباشرة، والأبحاث الميدانية، والمرويات الشفوية، مع الحرص على التوصيف الدقيق لما له من مآرب أخرى[2]، وإذ إن علم الاجتماع يدرس العلائق والأدوار والوظائف، فإن علم الإثنيات[3]: «يدرس المعارف العلمية التي يمارسها الفاعلون الاجتماعيون في الحياة العملية»[4].

ما يركز عليه هذا العلم هو ضرورات الحياة من أكل، وشراب، ومصنوعات، وآلات، وعلائق بين الرجل/ المرأة،

---

(1) نموذج أمثل: Prototype وهذا المفهوم متداول جداً في السيميائيات والعلوم المعرفية والذكاء الاصطناعي.

(2) التوصيف هنا مماثل للتشريح في الطب، والتحليل في الصِّوانَة، وتحديد المواقع في علم الإراثة (الطوبوغرافيا)، وتحليل المجتمع لصناعة القرار السياسي.

(3) الأناسة الوصفية/ العرقية: Ethnie/ Ethnographie.

(4) J. F. Dortier, op. cit., p. 217.

ودرجاتهما في سلم الميراث الثقافي، وعلى اللغة، والموسيقى، والرقص، وعلى أنواع الممارسات العلاجية من بدنية ونفسيّة.

لعل من بيـــن مـــا اهتـــم به علماء الاجتماع والأناسيون -في مختلف توجهاتهم- موضوعـــات القربان، والفدية، والتضحية، وهذه الموضوعات قديمة قِدَم الإنسانية، وردت فيها أخبار وحكايات وآثار، وأصداء ذلك في التوراة وفي القرآن. لهذا لا غَرَابَة أن تأتي في مقدمة اهتمامات مؤرخي الأديان وعلماء الأناسة. ومن يراجع (ض.ح.و) في المعاجم الْمُخْتَصَّة، يجد كتباً كثيرة تناولتها من زوايا متعدِّدة، بتأويلات مختلفة.

من بينهم إدوارد ب. تايلر[1] صاحب تعريفات ومفاهيم حاسمة، الثقافة عنده هي: «الكلّ المركّب الذي يحتوي على **المعرفة، والمعتقدات، والفن، والأخلاق، والقانون، والعادات،** (...) **والأساليب** التي ابتدعها الإنسان الذي يعيش في المجتمع»[2]، وأما المفاهيم فمن بينها "الإِحْيَائية[3]"، وتطور الرؤية الدينية من الإشراك والتعددية، إلى الوحدة والتوحيد.

---

(1) Tylor, Edward Burnett, (1832-1917), voir J.F. Dortier, *op. cit.*, pp. 831-832.

(2) *Ibid.*, p. 831.

(3) الإحيائية ; *Idem* "Animisme"

ومن بينهم كثيرون، نقتَصر على ذكر واحد منهم، وهو فرايزر، جيمس جورج[1]، مؤلف كتاب "الغصن الذهبي" الذي اقترح فيه نظريّة كبش التضحية[2]، ثم شاع الحديث عن وظيفة التضحية وطبيعتها وضرب المثل بها.

جـ - الفلسفة الوضعية

أصل هذه الرؤية هو الفلسفة الوضعية التي صارت إبدالاً فكريّاً تَسَيَّد في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لكنها خَارَت قواها، وخَبَا ضوؤها الوهّاج، فتنكرت في أسماءٍ أخرى[3]، ومسلَّمتها الأساسية أن الإنسان في مَقْدُوره أن يُحصِّل معرفة علمية حقيقية تبعده عن التعابير الجوفاء الخالية من كل معنى[4]، ومعتمدها التجربة، والملاحظة المباشرة للظواهر، وليس على الافتراضات الميتافيزيقية.

وإذا أشرنا قَبْل إلى أحد أعلام علم الاجتماع الديني الوضعي، فإننا نُنَبِّه الآن إلى مقترح مفهوم الفلسفة الوضعية،

---

(1) James Géorge Frazer, (1854-1941).

(2) كبش التضحية : Bouc emissaire

(3) J.F. Dortier, *op. cit*., Positivisme, p. 959.

(4) يتذكَّر المهتمون النضال المخلص الذي قام به د. زكي نجيب محمود.

وهو أغوست كونط[1]. وقد وجدت هذه الفلسفة مناخاً ملائماً بدائرة ڤيينا في سنوات الثلاثين من القرن العشرين، إذا اجتمع فلاسفة وعلماء في إبدال[2]: «التصور العلمي للعالم»[3]، وتفرّع عن الإبدال الوضعي المذهب الواقعي[4] الذي يتبنَّى تحكّم الإكراهات الواقعية في المواقف الفكرية والسلوكية.

في ضوء الفلسفة الوضعية، ثم الواقعية- بما تقتضيانه من وصف دقيق للأشياء كما هي في الحياة اليومية العادية-، فإنه اهتمّ بالحياة العلميّة، كالصناعة التقليدية التي ردّ الاعتبار إليها لما تعتمد عليه في إنجازها من تفكير ومعارف، ولما تبتغيه من أهداف عملية، الصنَاع- إذن- ليسوا أغبياء، ولعل ما تنعكس فيه هذه الخصال جميعها هو صناعة الفخار والخزف. فقد استعان بالمخْتصين فيها، وألَّف عليها كتباً، وأسس لَهَا متاحف، وطبع أدِلَّة هادية للزّائرين[5]. وهكذا اعتنى أيضاً بالطقوس الأسطورية وبالشعائر الدينية. فقد كتب عن الأضحية

---

(1) August, Comte : (1798-1857)، فيلسوف فرنسي مؤسس الوضعية في القرن XIX^{e} وعلم الاجتماع.

(2) إبدال : Paradigme

(3) Antonia, Soulez, *Manifeste du Cercle de Vienne et autres Ecrits*, Vrin, Paris, 2010.

(4) J. F. Dortier, *op. cit.*, pp. 708-710.

(5) ستتوضَّح هذه الفكرة أكثر في الفِقَر التي ترجمناها عنه.

في بلاد البربر، كما كتب الذين قبله عنها بصفة هذا الطقس ذي أبعاد إنسانية، وعن صلاة الاستسقاء[1].

من خلال ما كُتب، يمكن أن يُعدّ ألفريد بيل من الواقعيين، والمنهاجية الواقعية الوصفية تخرج من النفق المسدود الذي تؤدي إليه الوضعية المكبَّلة بالحواس وبنتائج التجارب، أو المعقولة بعقل ذي أمد محدود، أو متعالٍ عن التاريخ والمجتمع، ومن ثّمة، فإننا غير مقتنعين بمواقف من يناوئ الأنَاسَة لأنه يتبنَّى التاريخانية[2]، فكلتاهما تشترك في النسبية، وفي وجود الاختلاف.

أثرنا هذا الإشكال لما أحدثته المنهاجية الوضعية والواقعية من قلاقل اجتماعية وفكرية ودينية في بلاد المغرب- وخصوصاً الأقصى-، ومن بينها مسائل الظهير البربري، والاهتمام بالخرافات والأساطير، والعناية بالتصوف؛ وسنلقي بعض الأضواء عليها فيما كتبناه من "أطروحات"، وخصوصاً على موقف أ. بيل.

---

(1) سيأتي القول مفصلاً فيما كتبه في تأبينه صديقه جورج مارسيه، انظر "صدق شهادة".

(2) للأستاذ الجليل عبد الله العروي مواقف مشهورة، فهو يتبنى التاريخانية Historisismé.

Voir. J.F. Dortier, *op. cit*., p. 307 ; Popper, Karl Raimund (1902-1994), pp. 657-659.

3 - المسار

وُلِد ألفريد بيل في سالينس لي بينس (جورا)[1]، في أسرة متواضعة مادّياً. تلقّى تعليمه الابتدائي في بلدته المذكورة، والثانوي في بيزانسون[2]، حيث حصل على البكالوريا (الثانوية العامة)، وهو ابن سبعة عشر عاماً في العلوم. وحتى لا يكلّف ميزانية عائلته نفقات زائدة، اضطرّ أن يمارس منصب مُعِيدٍ[3] في ثانوية أوكسير[4].

ثم أبحر إلى الجزائر التي كانت تعاني خصاصاً في رجال التعليم (ونسائه)، ولما حلَّ بها، أسندت له مهمة معيد في "لَبْلِيدَة"[5]، ثم انتقل منها إلى مدينة وهران[6] لممارسة المهمة نفسها، حيث استقر خمسة أعوام، ما عدا سنة واحدة قضاها في الخدمة العسكريّة، وقد كان في أثناء سنوات مُهِمَّة الإعادة يقضي ما يفضّل من أوقات لدراسة اللغة العربية، هكذا حصل

---

(1) Salins - les - Bains (Jura).

(2) Besançon: بعيدة عن باريس بـ 387 ك في الجنوب الشرقي. وقد نمت الآن بالنظر إلى ما كانت عليه في القرن XIX[e].

(3) Répétiteur: من يتكفل بإعادات الدروس للتلاميذ.

(4) Auxerre: تقع في الجنوب الشرقي من باريس على بعد 170 ك.

(5) Blida: مدينة جزائرية تقع على قدم الأطلس.

(6) Oran: مدينة جزائرية تقع على البحر الأبيض المتوسط، وهي مركز صناعي تجاري. هذه معلومات مستقاة من الفصل الأخير.

فيها على شهادات عليا في الجغرافية وفي التاريخ، شهادة الجغرافيا متعلقة بـــ"البحيرات، والمستنقعات، والسَّبَخَات بأرض الجزائر"، وأما شهادة التاريخ فهي: «بنو غانية وصراعهم ضد إمبراطورية الموحدين»، وقد أنجز هذين البحثين في مستوى يفوق المستوى المعتاد لدى زملائه من الطلبة.

أبحاث ألفريد بيل الشاب ذي الأربع والعشرين ربيعاً، لَفَتَتِ الانتباه إليه، وفرضت على أساتذته أن يتنبؤوا له بمستقبل زاهر.

مكافأة له على هذا التفوق، عينه روني باسِّيه في ثانوية بمدينة الجزائر، إذ كان بَاسِّيه[1] عميداً للمدرسة العليا للآداب في الجزائر، مسموع الكلمة، وقد تعرف ألفريد بيل في هذه الحقبة من حياته على أساتذة أجلاَّء، مثل ديستانغ[2] المختصّ في اللهجات البربرية (الأمازيغية)، ودُوتِّه[3] المتضلع في الأناسة الوصفية، وعلم الاجتماع.

ترقى الرجل بعد ذلك، فصار أستاذاً بمدرسة تلمسان الشهيرة التي كان يُدِيرُ شؤونها إد. دُوتِّه ثم وِلْيَام مارسيه[4]، ثم صار مديراً لها بعد مغادرة و. مارسيه سنة 1905، بمساندة من

(1) René Basset.
(2) Destaing.
(3) Edmond, Doutté.
(4) William, Marçais.

أستاذه ر. باسِّيه أيضاً، الذي كان ألحقه بها سنة 1899، وقد استمرت إدارته لها ما يقرب من ثلاثين سنة.

وفي هذه الأثناء تعرف على ثلاثة شيوخ من علماء الجزائر: هم سي أحمد بل بشير، وسي بن يوسف البغدادي، وسي الحاج بن يامينا[1]، وكان كُلٌّ واحد من هؤلاء العلماء مؤمناً أصح الإيمان دون تعصّب، وكانوا كلهم محل إعجاب وتقدير من الخاصة والعامة، وقد اغتنم ألفريد بيل هذا الوضع، فاندمج معهم، ونال وُدَّهم، لا سيما محبة أكبرهم سِنّاً سيدي أحمد بل بشير، الذي وضع كل ما يملك من وثائق تحت تصرُّف هذا الباحث الشاب.

مدرسة تلمسان كانت مختبراً جليلاً لدراسة اللغات، والدين الإسلامي، والعادات، والثقافة الشعبيَّة، إنه مشروع ثري وخِصْب، استند إلى مناهج معاصرة أشرنا إليها قبل، مثل الأناسة الوصفية[2]، التي كانت آلته المفضلة في التدقيق، والانتباه إلى الفروق في الأشكال، والأحجام، والألوان، والكميات، والكيفيات، كما استفاد من طرق البحث الإسلامية

(1) حافظنا على الاستعمال العامي الوارد في النص الأصلي: سي: السيد؛ بَلْ بشير: ابن البشير؛ يامينا: أمينة.

(2) Ethnographie: الأناسة الوصفية.

الرصينة[1] التي تَتَجَلَّى في كتب التراجم، والحوليات، والتدقيق في الروايات (...)، وأساليب المباحثة والمناظرة[2].

كان عمل لِقَاءٍ يتحاور فيه الشيوخ العلماء والطلبة النجباء عن مسألة لِتَكون منطلقاً لإعمال الذهن فيها، كان هذا التقليد الحواري التليد مفيداً للتلاميذ، والطلبة، والأستاذة، والشيوخ، بحيث إنهم تعمّقوا في فهم الدين (الديانات) والثقافة (الثقافات)[3].

تلك حياة الرجل في الجزائر، لكنه قضى منها مدة قصيرة في المغرب، ففي مارس 1914، دعاه الجنرال (اللواء) ليوطي[4] للمجيء إلى المغرب، بعد أن قرأ مقالاته حول مدارس السكَّان الأصْلِيِّين في الجزائر، فثمَّن قدراته التنظيمية،

---

(1) نقصد علم الحديث، وما يوظفه من تعديل وتجريح، وتدقيق في المفاهيم: التواتر.. وأخبار الآحاد، وعلم الأصول الذي يهتم بالنشأة الأولى، وبالمصادر، وبالقياس.

(2) فَنّ قديم شاع في العصور القديمة والوسيطة، مُنح أسماء متعددة، يجدها القارئ في كتب مجموع مهمّات المتون.

(3) كان الحوار يتناول مسائل إسلامية، لكن ألفريد بيل كان يستذكر خلفيته الدينية والثقافية غير الإسلامية.

(4) Louis Hubert, Lyautey, Marechal. تتحدث عنه المعاجم الفرنسية بأنه وُلِد (1854-1934)، نظم الحماية الفرنسية بالمغرب (1912-1925)، وحافظ عليه أثناء الحرب العالمية الأولى، على الرغم من المناورات الألمانية. وكان وزيراً للحرب (1916-1917).

وعمق معرفته بالديانة الإسلامية، وكان الهدف الأكبر من تلك الدعوة تكييف التعليم الإسلامي المغربي مع مناهج دولة الحماية. وقد وجد ضالّته في المغرب، بحيث ما إن استقر به الْمُقَام حتى نادى بعض تلامذته الجزائريين الذين سيكونون- تحت إشرافه- خير رُسُل لتبليغ الفكر الفرنسي إلى الساكنة الأصلية المسلمة[1].

يحدثنا ألفريد بيل عن نشاطه في المغرب من مارس 1914 إلى غشت (أغسطس) 1916، أنه كان يقضي أوقاتاً طويلة في مصانع الخزف، مُحَدِّقاً في كيفية اشتغال العمال، واحترازهم، وتحفّظهم في إجابتهم عن أسئلته، لكن التحفّظ زال، والخوف انقشع، فصار يخبرهم عن الحرب العالمية الأولى ومستجداتها، وعن تأريخ الكهرباء، وعن سكة الحديد التي ربطت فاس بطنجة، وعن مسلمي البلدان الأخرى، وخصوصاً المغرب الأوسط، وعن فرنسا وتقدّمها الصناعي والاجتماعي والفكري.

لعل الثلاثين شهراً التي عاشها في مدينة فاس في المغرب، هي أخصب تجربة في مجريات حياته. ذلك أن كل شيء كان مفيداً في هذا المغرب المفتوح حديثاً. هكذا كان

(1) سيأتي تفصيل لهذا كله.

ينتقل من اكتشاف إلى اكتشاف، مغموراً بحب الناس، ومشمولاً بالمعرفة[1].

دعاه ليوطي المؤسِّس لنوع من الإصلاح في المغرب، فلبَّى أ. بيل الدعـــوة. ويؤكِّد جـــلّ الباحثيـــن أن ليوطي أرستقراطي، يَشُدُّه الحنين إلى النظام الفرنسي القديم، ومن ثمة حافظ على النظام المخزني العريق الذي له سلطان ونُخَبٌ ذوات أسماء مختلفة: أعيان، ووجهاء، وعلماء، وصلحاء، ورماة[2].

لقد أورد عبد الأحد السبتي في كتابه: **التاريخ والذاكرة**، رسالة مطولة من ليوطي إلى أقرب معاونيه، لكننا سنقتصر على ما له صلـة بموضوعنا، وهي منشورة بـــ"بالمنعطف" المؤرخة بـــ 18 نوفبر 1920، «لقد وجدنا في المغرب دولة وشعباً حقيقيين (...)، المغرب مَرَّ بأزمة (...) وكانت **أزمة**

---

(1) معلومات مستقاة من تأبين جورج مارسيه صديقه، والنص مترجم منشور في هذا الكتاب.

(2) عبد الأحد السّبتي، **التاريخ والذاكرة**..؛ المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1912، ص، 130-138.

- Kenneth L. Brown, *Les gens de Salé*.. Traditions et Changements de 1830 à 1930, Casa. EDDIF, 2001.
- A. Laroui, *Les Origines sociales et culturelles du Nationalisme Marocin (1830-1912)*, F. Maspero, Paris, 1977, pp. 67-125.

حكم أكثر مما هي **أزمة مجتمع** (. . .)، (وكان) حكماً فعلياً، يتمتع بحضوره في العالم بوصفه دولة بوزراء كبار وسفراء (...)، (و) معظم المؤسسات لا تزال قائمة، وهي ذات تمثيل حقيقيّ في أرض الواقع (...) متنوع بحسب المناطق، فالجنوب كان يعرف تنظيمات فيودالية (...)، (و) باقي مناطق المغرب تتوفر فيها مؤسسات محلية واجتماعية (...) وهيآت مهنية تقليدية، وجماعات القبائل، وشركات تجارية كبرى تتعامل مع وكلاء مقيمين بكبريات الموانئ الإنجليزية، والألمانية، والإيطالية، ولم يكن شيء من هذا القبيل في الجزائر (...)، (و) الشرائح العريضة من الشعب العربي (...) معظمها من البربر (...)، بعيدة كل البعد عن خمول مسلمي الشرق...»[1].

نستخلص من هذه الدورية هيمنة فرنسا على منافسيها من الدول الأخرى، مثل ألمانيا، وإسبانيا، وإيطاليا (...)، بعد

---

(1) عبد الأحد السبتي، الكتاب المذكور، ص. 185-186. وقد أحال المؤلف على:
G. Delanoë, Lyautey, Juin, *Mohammed V. Fin d'un protectorat*, Paris, Harmatton, 1988, T. 1, p. 27-33. Lyautey L'Africain. Plon, Paris, 1954-1957.
اختصرتُ الترجمة بحذف بعض المفردات، وتصرفتُ فيها بإضافة واصلات.

تغلبها في المغرب سياسياً، واقتصادياً، ونفسياً، من حيث السياسة رأى ليوطي أن دولة المغرب مأزومة، ولإخراجها منها، قام بإصلاحات عديدة، منها القضاء على "السِّيبة"[1] من حيث هي، سواء أتعلّقت بالتمرد على المخزن، أو تعلّقت بالتنافر بين القبائل، ومن حيث الاقتصاد ضمان المسالك التجارية الآمنة من قطّاع الطرق، وتأمين الطرق البحرية من القراصنة، وتنصيب أمناء المراسي ليسوا ممن يقولون: «دخل فارغاً وخرج فارغاً»، وإحداث المكتب الشريف للفوسفات؛ وأما من الناحية النفسية، فقد ركزت سياسة ليوطي على جهتين، **جهة ناعمة** تتجلَّى في إنشاء علم وطني، وفي زَجْرِ مُفطري رمضان، ومنع دخول الناس المسجد بأحذيتهم، وفي التفنن في العمران[2] **وجهة خشنة** تبرز في استخدام القوة الغاشمة، تبعاً لأسلافه الذين قَنْبَلُوا الدار البيضاء، والشاوية، وسلا، ووجدة...

جرياً على عادته في التوفيق بين المتضادّين، تحدّثَ بإيجاب عن المجتمع بِمَا له من مؤسَّسات متنوعة، وتنظيمات دقيقة، سواء أكانت في المدينة التي فيها الْحِنَاطِي، أم في

(1) A. Laroui, *op. cit.*, pp. 126-131.

(2) شاهد ذلك ما يُرى بالعين البيضاء والرباط، وفي تخطيط مدينة القنيطرة.

البادية التي فيها الجماعات تحت أسماء متعددة، لكن هذه الدورية[1] سكتت عن الأزمة العميقة في المجتمع، ففي المدن العتيقة، مثل فاس، وسلا..، كانت فئات منغلقة تحارب كلَّ تجديد[2]، وأما في البوادي، وخصوصاً البعيدة عن المركز، فكانت فيها فوضى وفتن وقلاقل، وهذا معروف مشهور ما زال المغرب المعاصر يعاني بعض عَقَابِيلِهِ.

وإذ هذه الدورية/ المنشور ليست إلاّ تركيباً من دراسات اجتماعية وأناسيِّة، قام بها خبراء فرنسيون ذَوُو رُؤًى مختلفة، فإنها لم تَخلُ من اختلافٍ مبطن انعكس في ثنائيات: الشرق العربي/ المغرب البربري، المغرب (الأقصى)/ الجزائر (الأوسط)، المدينة/ البادية، السهل/الجبل، غرب المغرب/ شرق المغرب، شمال المغرب/ جنوب المغرب؛ أوروبا/ شمال أفريقيا[3].

ما يهمنا من هذا هو التوكيد على فلسفة ليوطي التوفيقية، وعلى أنه كان يختار من بين مساعديه من هو مؤهل لأن

---

(1) في الترجمة: دورية "المنعطف"، ويستفاد منها أن هناك مجلة تسمى المنعطف، والترجمة الأوضح رسالة دورية. (Lettre circulaire)؛ أو: منشور: Circulaire.

(2) Kenneth L. Brown, *op. cit.*, pp. 237-253.

(3) نشير إلى فلسفة القسمة الكبرى التي سادت حيناً من الدهر سياسياً وثقافياً: أوروبا/ غيرها، شعوب مُتَحَضِّرَة شُعوب بدائية، ثقافة حية/ ثقافة مَيِّتَة.

يحملها. لهذا، فإنه اتجه صوب ألفريد بيل، معتقداً أنه رجل خبير[1] وحكيم[2]. كان أ. بيل يخالط الناس ذوي المستويات المختلفة؛ منهم الأعيان والوجهاء، ومنهم أرباب المعامل والصنعة، ومنهم أهل العلم والمتصوفة، كان يحادث كل واحد منهم بما يقتضيه المقال والمقام.

كان أ. بيل منفّذاً مثالياً لِفلسفة ليوطي في الجزائر وفي المغرب معاً، وإذ التفصيل يحتاج إلى صفحات كثيرة، فإننا سنشير إلى اهتمامه بميداني الصناعة التقليدية والتعليم.

بدأ يهتم بالصناعة التقليدية، في أثناء وجوده في تلمسان، تُعاونه زوجه المخْتَصَّة في المجال، فتعاونا على البِرِّ بالتراث؛ عَرَّف به فجمَّعه، وصنَّفه، ونشره، وكوَّن جمعيّات للدفاع عنه، وبهذا الصنيع بُعِثَت تلمسان من مرقدها[3]، وأُعِيد ما كان لها من صيت في غابر الأزمان. وقد استمر على هذا الدَّيْدَنِ لماّ كان في فاس بالمغرب، وإنّ ما كَتَبَه عن الفخار وصناعة الخِزَف، من حيث التقنية والحكايات

(1) في المثل: على الْخَبِير سَقَطْتَ.
(2) في المثل: فأرْسِلْ حَكيماً ولا تُوصِه.
(3) A. Bel, *La Population Musulmane de Tlemcen*, Paris, 1908.
A. Bel, *Tlemcen et ses environs*, *Guide Illustré du Touriste*, Toulouse. Sans date.

والأساطير، لَمِمَّا يضرُب به المثل في دقة الوصف واستقصاء النعوت[1].

وأما التعليم، فقد قام بإصلاحات كبيرة فيه بمشاركة علماء جزائريين، مما أدى إلى نهضة منهاجية غَنِيَّة. وقد دعاه ليوطي إلى المغرب ليصلح التعليم فيه، فقام بما يجب القيام به، متأمِّلاً في المتون المدروسة وترتيبها، وَمُفَهْرِساً للمخطوطات الموجودة في خزانة جامع القرويين، معتنياً بالخط المغربي.

يجد القارئ تفاصيل كثيرة عما أشرنا إليه، بقلم أ. بيل نفسه، وبقلم مُؤَبِّنِه جورج مَارْسِي، على أنّ عنايتنا- نحن- سَتَتَّجِه لتنْبيه القارئ إلى مغازي المنهاجيات الوصفية وأبعادها، ذلك أن الأناسي الوَصْفِيّ، والاجتماعي العِيَانِي الواقعي، هما مستند صانع القرار، فمثلهما مثل المختص في التشريح، أو في تحديد المواقع، للقيام بالعمليات الناجحة والفعالة.

قَضَى في المغرب ثلاثين شهراً، عُدّت الأخصب في حياته العلمية والمهنية، وليس هذا الاعتبار مجرد كلام فضفاض، لكنه ملموس فيما تركه من أشياء مادية، ومن ذكرياتٍ حسنة لَدَى من خالطه، وتعرَّف عليه من قريب، إلاّ

(1) A. Bel, *Les industries de la céramique à Fes*, Alger-Paris, 1918.

أنه أُمِرَ أَمْراً برجوع لا تُدْرَى أسبابه! فهل اقتضى الوضع الجديد لليوطي- بعد أن صار وزيراً للحرب سنة 1916-1917 - ذلك؟؛ ومهما يكن السَّبب، فإنّ ما حصَّله أ. بيل من تجارب غنية، ومغَانِمَ معرفية كثيرة، في المغرب، انعكس في مؤلفاته، وفي ذلك خير عزاء لأهل فاس.

عاد إلى الجزائر، وهو في أوج عطائه، فطفق يُمارِس البحث الميداني القروي، إلى جانب البحث الميداني المدني الذي أنجزه في تلمسان وفاس. هكذا صار يغتنم فترات الترويح عن النفس بهواية القنص آخر كل أسبوع، وأيام العطل المدرسية، فيتّصل بسكّان الأحراج والبراري من أعراب وبرابر، فيستمع لِحكاياتِهم وخُرافاتهم وأساطيرهم، وكان من بين ما اقتنصه منهم أسطورة **جازية**[1]، التي تتحدث في قصيدة شعرية عن ملاحم أعراب بني هلال. وقد أدى الجمع بين البحث النظري والميداني الحضري، والبدوي، إلى امتزاج الثقافة العالمة بالثقافة الشعبية، وبين الشرع والعُرْف، وبين التصوف الخاصّ والعامّ[2].

تلك مجهودات الرجل، لكن رِيَاحاً هَبَّتْ بما لا تشتهيه سفنه الماخرة لعباب البحث والمعرفة، كانت الرياح المعاكِسة هي اشتداد عُود التيار السلفي المتمثِّل في جمعية علماء

(1) سيأتي الحديث عنها.

(2) هذه ثنائيات متلازمة، وسيتضح التلازم في "أطروحات"، ص 47.

المسلمين التي كان يرأسها ابن باديس[1]، وهي هيئة نجمة شمال أفريقيا، بزعامة مصالي الحاج[2]، وهي وعي متنامٍ بالوطنية والمواطنة، كتنظيم ذكرى مئة سنة على احتلال الجزائر 1930[3]، استفزازاً من المستعمر للسكّان الأصليّين، ورفض الظهير البربري الصادر في 1930[4]، وبداية تأسيس جمعيات سياسية من لدن نخبة محلية، اشتدّ عودها شيئاً فشيئاً.

لقد لَمَّح إلى هذا الوضع جورج مارْسيه في تأبينه، فحدَّثنا فقال: إنّ أ. بيل سَوَّرَ مقبرة للمسلمين، فثار عليه أهل السلف، ونظروا إلى عمله على أنه بدعة ضالّة يستحقُّ مُجْتَرِحُها كل لَوْم وتوبيخ، وبعد أن أيقن أن لا أمل في إقناعهم شد الرحال، وغادر الجزائر إلى حيث الأمْن والأمان في المغرب، فاجتمع شمل العائلة في مكناس، وقد يكون ذلك في حدود 1940-1941.

وجد أ. بيل مُهَاجَراً آمناً، لاَ مرغماً، وحلّ أهْلاً، ونزل سهلاً عند ابنه، وبين أصدقائه، وتبعاً لهذا رجع الشيخ إلى

---

(1) عبد الحميد بن باديس (1889-1940)، أسس جمعية علماء المسلمين 1931.

(2) مصالي الحاج (1898-1974)، أبو الوطنية في الجزائر، أسّس حزب الشعب الجزائري.

(3) أي 1830-1930.

(4) سنناقش هذه المسألة بتفصيل في "أطروحات"، ص 47 وما بعد.

عُنْفُوَانه، فألَّف كتباً تركيبية خلّدت اسمه، على أن لكل بداية نهاية، ولكل أجل كتاباً، إذ أُصِيب بمرض أعجز كل نِطَاسِي[1]، فأسلم الروح إلى بارئها في 18 فبراير 1945.

4 - مَدَار الأفكار

ذلك مسار حياة الرجل العلمية، وهي حياة مرصعة بجواهر المؤلَّفات، والمقالات، والعروض، وقد بذل أحد الباحثين مجهوداً يُشْكَر له في إحصائها، وترتيبها، وذكر مكان النشر وزمانه.

لقد قال جورج مَارْسيه كلاماً مفيداً، نسوقه حرفياً، ثم نعقّب عليه: «قائمة أعماله التي شَرَّفَتْهُ نوعان: أحد عشر مؤلَّفاً (كذا)[2]، وأبحاث احتلَّت مكاناً مرموقاً في المجلات الآتية: المجلة الأسيوية، والمجلة الأفريقية، ونشرة جغرافية الجزائر ووهران، ومجلة **هسبريس**، ومجلة **تاريخ الأديان**، ومجلة **الدراسات الإثنوغرافيا** (الأناسة الوصفية والبحث في الأعراق)[3] ونشرة علم الآثار، والموسوعة الإسلامية،

(1) النِّطاسي: الطبيب الحاذق.
(2) في الإحصاء اثنا عشر.
(3) ما بين قوسين توضيح مِنِّي.

ومنشورات[1] وترجمة كتب الأخبار...»[2].

موضوعات هذه الكتب والمقالات والعروض، هي التاريخ السياسي في بلاد البربر، وهي التاريخ الديني المتعلق بالمذهب والعقيدة والتصوف، وهي التاريخ الاجتماعي الخاص بالأعراف، والقبائل، والطبقات، والحنطات، وهي الوصف الجغرافي لتلمسان ونواحيها، وفاس ومكناس وما بينهما، وهي التَّوصيف الدقيق لطقوس الاستسقاء والتضحية، والسحر، والخط العربي، والآداب، بما فيها من شعر جاهلي وصفي، أو غير جاهلي ذي أغراض متعددة، مع الانتباه إلى خواصّ الشعر الموسيقية[3].

منهاجية أ. بيل في البحث تسلك طريقين، إحداهما تَسْتَوْحِي من مناهج مستجدّة، كعلم الاجتماع، وعلم الأناسة الوصفية والعرقية لِتَوْصِيف الظواهر والوقائع لمعرفة مكوناتها، وهياكلها، وعلائق عناصرها، حتى يتعرّف على أماكن الخلل، ومواطن القوة للإصلاح، أو التَّعْزيز، من بين ما تتمثَّل فيه تلك المنهاجية بحث: "شعائر الاستسقاء... عند المسلمين

(1) لعله يقصد كتباً، مثل الدُّرَر السنيَّة.

(2) George Marçais, «Alfred Bel», in *Revue Africaine*, Vol. 89, 1980, pp. 102-116.

(3) A. Bel, Une conférence sur la poésie arabe antéislamique in B.S.G.O., Avril-Juin, 1905.

المغاربيين"، وكتاب "صناعة الخزف في فاس"، وورقة: "عيد الأضاحي في بلاد البربر"[1].

أراد في "شعائر" أن يقدم أطروحة مركزية، هي أنّ الإسلام أبقى على ممارسات ما قبل إسلامية، لكنه أَلْبَسَها ثِيَابَهُ، وفي "صناعة" أن يقدّم وصفاً دقيقاً لها منذ أن كانت تُراباً، إلى أن صارت آنية تَسُرُّ النَّاظِرِينَ، وفي أثناء كل ذلك كان يقدم نصائح لإنقاذها من الانحطاط، ولتطوير قدرات الصناع الفكرية والروحية، بمنح صناعتهم أبعاداً دينية وبركات سماوية[2]، وأما "الأضاحي في بلاد البربر" فقد التمس أصله في أزمان غابرة قبل الإسلام، لكن الإسلام جعله من السنن المؤكدة، "العيد الكبير" يقوم على ركنين أساسيين، الصلاة ثم الأضحية، وأما ما عداهما من ممارسات مصاحبة فهي محلّية، قد تختلف بحسب الجهات والمثاقفات[3].

---

(1) يجد القارئ إيضاحاً لكل هذا في IV: صدق الشهادة.

(2) انظر: في III: "لَبَاقة السياسة".

(3) Alfred Bel, *La Fête des sacrifices en Berberie*, in Memoires publiés a l'occasion du cinquantenaire de la Faculté des Lettres d'Ager, 1932, pp. 87-123.

ثانية الطريقين توظّف تقاليد البحث التاريخي التقليدي الذي يجمع الوثائق المتعددة لترصيف تاريخ موضوعي يمكن أن تستخلص منه العبر والمواعظ، لاستشراف تعامل ناجح وناجع، ولتجنب أساس النكسات، والنكبات، ولعل كتاب: "الدين الإسلامي في بلاد البربر" خير ممثل لهذه الطريقة[1].

(1) انظر في II: "أطروحات".

الفصل الثاني
أطروحات

تمهيد

أشرنا في الفصل الأول، المعنون بـــ: "مقتضيات السياق"، إلى المناخ السياسي الذي ساد في آخر القرن التاسع عشر، وفي المنتصف الأول من القرن العشرين، كما أننا ألمحنا إلى الجو الفلسفي المنهاجي الثقافي الذي هيمن في الحقبة نفسها، كالوضعية والواقعية، وما حايثهما من نزعات مركزية تعصّبية، تطلّبت ردود أفعال مختلفة.

لقد افترضنا تأثير ذلك السياق، في أ. بيل، بدرجة من الدرجات، خصوصاً أنه كان من بين المكتوين بناره حيناً، والمستمتعين بمكاسبه أحياناً أخرى، لهذا آمن بتأثير المحيط والبُنية المجتمعية التحتية في خلق النماذج والأفكار والتصورات، وفي رفض الجوهرانية المتعالية، والعقلانية المتطرفة، وفي تبنّي الأناسة والتاريخانية.

تناول الرجل قضايا متعددة، لذلك قُمنا باختزال أول تَعلَّق بالعلوم والموضوعات، وها نحن الآن نقدّم اختزالاً ثانياً، يكون بمثابة الجذر، أو النواة، أو الأصل، أو المفهوم

الذي ينظّم الإدراكات والمعارف، وهذا ما قام به المهتمّون بالتنظيم والتصنيف[1]، منذ أن بدأ الفكر البشري. لهذا لا غرابة أن نجد فكر الغرب الإسلامي الوسيط اقترح ثالوثاً، هو الفقه المالكي، والعقيدة الأشعرية، وتصوّف الْجُنَيد[2]، ونعثر على من اعتبره ثالوثاً تفسيرياً لِبُنية السلطة والمجتمع في المغرب، وهي الحكم، والزاوية، والقبيلة[3]، وهناك من وضع ثالوثاً عاماً، هو القبيلة، والعقيدة، والغنيمة[4].

ألفريد بيل[5] تبنىّ هذا الثالوث، لكن بقي عنده ضمنياً، وها نحن الآن نتبنّاه أيضاً، فَنُظهر ما أُضْمِرَ، ونُجَلِّي ما أُخْفِيَ.

1 - القبيلة

ما تبيناه لا يعني أنّا قلّدنا، بل إنّ قوانين الطبيعة تفرض علينا ذلك، لهذا، نفترض أنّ ما زاد على اثنين في موجودات الطبيعة هو تكتّل يشترك في أشياء ما، ويختلف في أشياء ما، لكنه يسعى إلى ما يحفظ حياته.

---

(1) Organisation et classification.

(2) تكوَّن هذا الثالوث عبر حقب مديدة.

(3) A. Laroui, *op. cit.*, pp. 67-120 ; pp. 129-186.

(4) أطروحة معروفة للجابري- رحمه الله.

(5) A. Bel, *La religion Musulmane enberbérie*, Dar Aman, (1938).

القبيلة كلمة سهلة على اللسان، لكنها ثقيلة في ميزان الإدراك، والتخيل، والتعقل، لقد أعْيَى إدراكُ معناها ومضمونها وتحديد أدوارها المؤرّخين والأنَاسيين في كل أصقاع الأرض، على الرغم من مجهودات ابن خلدون والأناسيين الغربيين وعبد الله العروي. أمام هذا الوضع ألَا يَجْدُرُ بنا أن نشتغل عليها، كأنّها لا تثير أيّ إشكال؟! إن هذا حَلٌّ سَهْل لا يُزِيلُ اللُّبس والغموض، لِعدم وجود قاعدة صلبة يُشَيِّدُ عليها بناء نظري متين.

سندَّعي- والبينّة على من ادَّعى- أن القاعدة هي الإنسان الذي هو المبتدأ والخبر، ومنه الذهاب وإليه العودة[1]، والإنسان له جسم ذو أعضاء، وله وسائل إدراك خمس، وقدرات تخيّل، وملكات تعقّل، وأدوات تعبير متنوعة[2]، أهّمها اللغة[3]؛ لهذا سَنَتَبَنَّى تحليلاً يعتمد على فقه اللغة.

القبيلة من: (ق.ب.ل) وعندما تقلب أصوات هذه المادة تحصل ستة تقاليب؛ (ق.ب.ل) تدل على بَنِي أب واحد، وعلى الجماعة من الثلاثة فصاعداً، وعلى المكان/ الأرض،

(1) وبالتعبير المعاصر نموذج أمثل: Prototype.

(2) انظر كتابنا: فلسفة النقد (في المطبعة الآن).

(3) سلكنا هذا الطريق في كتابنا: **المعنى والدلالة**، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء/ المغرب، 2018.

وعلى الجبل، والمرتفع من الأرض، والمفازة التي لا تنبت البتة، وعلى الزمان.

(ل.ق.ب) اسم يسمّى به[1]، ويُشْعِر بمدح وذم.

(ق.ل.ب) تعني القلب، وهو العضو الموجود في الجانب الأيسر من الصدر، وصدر المجلس، والرجوع إلى الأصل.

والجسم البشري يتكوَّن من أعصاب، وقلب، وبطن، ورأس، ومنكِب، وفخذ... كما أن بأطراف الجسم البشري تحدَّد المقاييس: قَدَمٌ، شِبْرٌ، ذِراع...؛ على أنّ البصر هو ما يلعب الدور الأساسي في الإدراك، كتضاريس الأرض، وأنواع النبات، والحيوان، وما في السماء من الكواكب والأفلاك...

وعليه، فإن أسماء القبيلة، وفروعها، وأجزاءها، مُشْتَقَّة من جسم الإنسان، لذلك يُمكن صوغ التشبهات الآتية: **كل شيء جسد، والأرض جسد**[2]، وكل جسد له مكوِّنات، وعناصر متعالقة متفاعلة. كل مجتمع من المجتمعات لا يَخْلُو مِمَّا يسمَّى بالعربية: "القبيلة"، فهي فسيفساؤه، ولكون القبيلة

(1) (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان).

(2) يبيّن هذا دور التشبيهات والاستعارات والقياسات في خلق المعرفة.

اجتماعاً إنسانياً في محيط، فإن هناك درجات في القبائل، وفي أفعالها، وفي أعمالها. قسمت الطبيعة جسد الإنسان إلى أعضاء، واللغة البشرية جسد القبيلة إلى أجزاء، لها أسماء قصدية، أو اعتباطية[1].

أ - القبيلة العربية المشرقية[2]

تبعاً لهذا، فإننا سننظر إلى القبيلة أنَّها واقع لا فكاك منه، إلا أنها تختلف قوة وضعفاً، وكثرة وقلة، وسلوكاً محموداً أو مذموماً، وهذا شيء طبيعي، لهذا فإننا سنتحدث عن القبيلة المشرقية من جهة، وعن القبيلة البربرية من جهة ثانية، وعن تاج القبيلة الذي هو الأمة.

القبيلة المشرقية: أفاض المؤرخون والأناسيون الوصافون[3] في الحديث عن قبائلها، مثل بني هلال وبني سُليم وفروعها، ومن بينهم ألفريد بيل. هكذا تكلم عن: «احتلال العرب الهلالية»[4] لبلاد البربر، إلا أن من له اطّلاع على الأبحاث التاريخية يجد أنه لم يأت بجديد في هذه المسألة.

---

(1) مفهومان يناقشان في أصول المعرفة، وفي أصول اللغة خاصة.

(2) "العربية"، أو "البربرية"، أو "الألمانية"... صفات، وليست ذوات.

(3) Ethnologies/ Ethnographes.

(4) A. Bel, *op. cit.*, pp. 200-209.

قبائل بني هلال وبني سليم من الأعراب الذين وصمهم القرآن الكريم بأنهم: أشد كفراً، ونفاقاً، وجهلاً بِحُدُودِ الله، وعقاباً لهم كتب الله عليهم الجلاء من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، فصعيد مِصْر، فإلى بلاد البربر التي احتلّوها في القرن الحادي عشر فأحدثوا ما أحدثوا من سلب ونهب وتخريب وتدمير في السهول والقرى التي جَاسَتْ خلالها قبائل الخلط وسفيان ورياح...

هؤلاء الأعراب كان لهم دور كبير في الجهاد، تحدثت عنه قصيدة لابن طفيل الفيلسوف (506-581)[1]، وقد حثهم فيها على نَيْل الشهادة بالدفاع عن العقيدة، وللحصول على الغنيمة، موظّفاً كل ما يثير حميَّتَهُم؛ على أن ابن خلدون ذا الأصول الأندلسية، المتشبع بروح الإسلام الذي كان يُحَذِّر من العصبية، كان له موقف من الأعراب مشهور، أسال كثيراً من المداد[2].

خصّص ابن خلدون كثيراً من فصول الباب الثاني الذي تكلم فيه عن العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل، وقد احتكم ابن خلدون في كلامه إلى قوانين العمران، وتواتر

(1) محمد مفتاح، **النص من القراءة إلى التنظير**، طبعة 2018، الأردن، ص 88-102.

(2) **مقدمة ابن خلدون**، المجلد الأول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، ط. ثانية، 1996، ص. 128-137.

الأخبار، والملاحظة العيانية، فصاغ أحكاماً مثل: البداوة أسبق من الحضارة، وما هو ضروري قبل ما هو كمالي، والأصل أساس الفرع، وأهل البدو خير من أهل الحضر، لأنهم يفضّلون الشجاعة على الحيطة والحذر، والسلطة على الخنوع، والاقتصاد على الإسراف، إلا أن هناك عرباً متحضرين هم من انبثق بين ظهرانيهم الإسلام، فآمن به بعضهم وكفر به من كفر، كانت مكة فضاء لانبثاقه، والمدينة مجالاً لنصرته، وبهذا اشتدّ عود المسلمين، ففتحوا البلدان، وأسّسوا قُرىً ومدناً.

الأعراب ذوو العصائب، والقبائل الرحل، فرضت عليهم ظروفهم ومحيطهم أن تكون لهم أوضاعهم الخاصة، إن الظروف والمحيطات تفرض أن يُنظر إلى ما قاله ابن خلدون في الفصل 25[1] على أنه أحكام نسبيّة، رغم أنه أكّد أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط التي ينهبونها، ويعيشون فيها، وأما من يعتصم بأوعار الجبال فهو بمنجاة من عبثهم وفسادهم، وكل ما يتغلبون عليه يُسرع إليه الخراب.

ومع ذلك، فإن كلام ابن خلدون لم يُفهم على حقيقته، وخصوصاً بعض المستشرقين الفرنسيين، مثل جورج مارسيه ومن تبعه[2]، إذ إنه لم يُراع التفرقة بين العرب والأعراب،

(1) ابن خلدون، ما تقدّم، ص. 158-160.

(2) A. Bel, *op. cit.*, pp. 201-203.

وبين القرن الحادي عشر وما قبله، واختزل التاريخ المعقد في ثنائيات حادة: البسائط/ الجبال، العرب/ البربر، الحضر/ البادية.

قد يُستثنى من هؤلاء ألفريد بيل ومن معه، فقد أخذ في تقديره المتغيرات التي حدثت في القرن الحادي عشر وما بعده، في السياسة وفي الدين وفي المجتمع. لقد وقع القضاء على تديّن بورغواطة، وتديّن غمارة، وعلى عقائد الخوارج، والشيعة الفاطمية[1]، واستوطن **العرب السهول إلى جانب بقايا من البربر، فوقع التفاعل بين الوافدين الجدد والسكان الأصليين**.

ب - القبيلة البربرية الغربية

في ضوء المنطق الذي يعني أن القبيلة شيء طبيعي كالجسم البشري من حيث البنية، ويفرض ذلك المنطق أن ما قيل عن القبيلة المشرقية يقال عن القبيلة البربرية الغربية، ولذلك فإن بعض القبائل البربرية أسهم في بناء ثقافات وحضارات إنسانية، إلا أن بعضاً آخر كان مخرباً متوحشاً.

على أن الرواة والأخباريين لا يحدّثون عن **وجود هذه الصفات الذَّميمة التي أُلصقت بالقبائل الأعرابية في القبائل**

(1) سيأتي الحديث عنهم عند الكلام عن العقيدة.

البربرية الغربية، وهذا الموقف يطرح عدة أسئلة عويصة، وافتراضات تحتاج إلى اختبارات وثيقة، ومن بين الأسئلة: هل كانت القبيلة البربرية الغربية بسيطة ومنعزلة؟ إن الأمر ليس كذلك، كانت في هذا المجال السوداني ممالك مثل وَلاَته، ومالِي وتَنْبُوكْتُو... ومعظمها كان على نهر النيجر، وتمر بها طرق كان يسلكها التجار الذاهبون من ولاتة إلى القاهرة، كما كانت هناك محجّة تربط بين تَنْبُوكْتُو وفاس، ومسالك تؤدِّي من موگادور وسوس إلى تَنْبُوكْتُو[1].

تحدث الإخباريون عن القبائل الرحَّل فقط، ولم يتحدثوا عن المستقرين الذين كانت لهم ممالك ذكرنا بعضها، منها من هو قوي، ومنها من هو ضعيف، بل إن بعض كتب الرحلات تحدثت عن سكان هذه الممالك بأنهم كانوا يتعاطون تجارة اكتسبوا منها ثراء بيِّناً لِعَدلهم وحسن تدبيرهم.

إنه من المبالغة إذا لم نراع الوجهين معاً، وجه القبائل الرحَّل التي كانت تجوس خلال الفيافي والقفار، وتتعيش من النّجعة لرعي الأغنام والماعز والأبقار والجمال، ووجه القبائل المستقرة المتحضرة. إن الفضاء الجغرافي يحدد نمط العيش والعادة والتدين، وقد كان هناك تفاعل بين الاستقرار

(1) الوزان الفاسي/ليون الإفريقي، **وصف أفريقيا**، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط: 2، القسم الرابع، بلاد السودان، ص 159-167.

والترحُّل، أدى إلى مزيج مُلَطّف للصراعات العصبية، وإقْبَالٍ على ما هو روحاني.

إذا صَحَّ هذا التحليل، فإنه من غير المعقول أن يقال: إن أعراباً[1] بُدَاة حفاة أقاموا دولة آخذة بقواعد العمران، وإذن، لابدّ أن يكون هناك نظم وتنظيمات عملية وروابط روحية. لهذا قد لا يُقبل أن يُنعت المرابطون بأنهم بدو رُحَّل على الإطلاق، مع أنهم أقاموا حكماً في مجال شاسع المسافة. نعم، لقد كانت دوافعهم عديدة، منها الحصول على الغنيمة بالدفاع عن العقيدة، والتوق نحو الدولة.

أشار بعض الباحثين الفرنسيين إلى هذا، منهم جورج مارسيه فقال: «المرابطون والموحّدون فرقتان (عقديتان) قبل أن يكونوا مملكتين، وسبب وجودهما هو العامل الديني، إنه مجهود الإسلام، الإسلام البربري بصفة خاصة الذي كان يقاوم تهديد إسبانيا المسيحية»[2].

مؤسس الدولة كان عبد الله بن ياسين، وقد كان يسكن رباطاً يجتمع فيه أناس، ويقوم بالتعليم والتعلُّم، وينشر

(1) يوحي استعمال الوزان لـ"عرب"، و"أعراب" إلى البدوي بإطلاق؛ المرابطون مغبونون مظلومون، شأنهم شأن الدول المشابهة لهم.

(2) A. Bel. *Op. cit.*, p. 214.

العقيدة والدفاع عنها[1]، أي أن الرباط فضاء للتجّمع، والإعداد، والتعبئة، وتبعاً لهذا بَدَأ عبد الله بن ياسين وصحابته يخططون للجهاد، ومنهم يحيى بن عمر الذي وضع تنظيمات ونُظماً **للدفاع عن العقيدة، وللحصول على الغنيمة، وللقضاء على دعاة التشرذم الاجتماعي والعقدي؛ أي أنّ إيديولوجيتهم كانت الدعوة إلى الوحدة والاتحاد للقيام بأعباء الجهاد**[2].

بعد وضع المرابطين المؤسسات الضرورية للجهاد، بدؤوا يمارسونه فعلياً، ولعل أشهر غزواتهم هي موقعة الزلاقة (479هـ/1087م). وقد سار على نهجهم فيما بعد الموحّدون في موقعة الأراك[3] (591هـ)، والمرينيون الذين خلدت قصيدة الملزوزي[4] ما قاموا به من جهاد في الأندلس، هكذا صار الجهاد (الحرب المقدّسة) في إسبانيا، السمة المهيمنة في سياسة أمراء المسلمين بالمغرب، وتجلّت هذه العقيدة في كل المكونات الثقافية في المغرب، من

(1) *Ibid*, p. 218.

(2) *Ibid*, pp. 211-225.

انظر أيضاً: ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**...، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، ط: 2، 1999، ص 151-216.

(3) ما ذكر فويقه، ص. 300.

(4) نفس الشيء، ص. 476-490.

العملة، إلى النَّحو، مروراً بالبلاغة والشعر وعلم الكلام... والمساجد والمنابر[1].

جـ - الأمـــة

ندّعي أن دعوة الاتحاد والتوحيد، ونبذ الفرقة، للقيام بالجهاد صارت ثابتة من ثوابت الفكر المغربي، وأساسها، **ببيعة الشجرة** الواردة في القرآن الكريم: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2]، لقد انطلق المؤرخون والمؤلفون في الآداب السلطانية من هذه الآية.

هكذا خصص ابن خلدون في المقدمة: "الفصل التاسع والعشرون من الباب الثالث" من الكتاب في الدول العامة والملل والخلافة والمراتب السلطانية.. ليفَسِّر معنى البيعة[3]، وهي من مادة (ب.ي.ع) وتعني في الدلالة الأولى: تبادل شيء بشيء: (البيع) وهو ضرب يد البائع بيد المشتري، وهذا الفعل هو ما يعبّر عنه بالصفقة، وأما المعنى الثاني فهو

(1) A. Bel, *op. cit*., p. 223.

(2) سورة الفتح (48)، الآية رقم 18 و19.

(3) ابن خلدون، **المقدمة**، ص. 22-222.

المعاهدة: (مبايعة) وتكون بألفاظ معينة هي: القيام **بالمَنْشَط والمكره**، وهذا الاسْتِحْلاف هو ما يسمى بـــ"أيمان العهدة".

وإذ البيعة ثابتة من ثوابت الإسلام، فإن مؤرخي الآداب السلطانية اعتنوا بها فجعلوا لها، شروطاً متداولة، ومن بينها توحيد الناس ليصيروا أمة واحدة للقيام بأعباء الجهاد، ولحماية الديار، وأما المؤرخون فمن بينهم عبد الله العروي بِما كتبه عنها في أطروحته[1]، وقد أكد أن الفقهاء كانوا ينتقدون المخزن، ويرون أنه يُخِلُّ بعُهدة البيعة، ويخرج عن المذهب المالكي، لَمَّا لم يتّخذ العُدّة الكافية لمواجهة القوى الخارجية، مثل البرتغال وإسبانيا وفرنسا..

البيعة إذن، مستندة إلى كتاب الله وسنّة رسوله، كتاب الله يدعو إلى الوحدة وينهى عن الإشراك به، والسنّة تؤكد إمامة شخص وحيد، لذلك فإن محمداً ﷺ قال عن نفسه: «إنه ليس إلا رسولاً وقد خلت من قبله الرسل»[2]. فإذا مات أو قُتِل خلّفه إمام واحد.

البيعة أساس الحكم في المغرب تَنْصيباً واستمراراً[3]،

(1) A. Laroui, *op. cit.*, pp. 71-81.

(2) أصل الآية: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل».

(3) ابن أبي زرع، الكتاب المذكور، ومن نماذج عهدة البيعة ما كتبه يوسف بن تاشفين بتولية ابنه الأمير على عَهَده، ص 558-580، وما يراه المشاهد في عيد العرش كل سنة في المغرب.

وهي ليست إذن إلاَّ امتداداً للتقاليد التي وضع أركانها الإسلام، ومن سار عليه من الحكام، كالمرابطين الذين نشروا المذهب المالكي السنّي المعتَمد على القرآن أساساً. ذلك أنّ: «ابن ياسين لم يكن عالم كلام، وإنما كان فقيهاَ مَالِكياً، لا يعلم أي شيء إلاّ القرآن، أي الشرع السنّي والفروض العبادية»[1]؛ ومن بين تلك الفروض محاربة من شقّ عصا الجماعة، والقيام بِجهادِ الكفار.

يمكن للباحث أن يزعم أن **عهد المرابطين وفّق بين القبيلة ذات العصبية التي ذمّها القرآن، وبين الإسلام الذي يُمَجِّد المسؤولية الفردية**، لقد تجلى هذا التوفيق في التداخل والتفاعل بين القبائل العربية والبربرية، وبين الشَّرع والعُرف. وهذا ما انتبه إليه ألفريد بيل، فبعد تحليل دقيق، توصل إلى النتائج الآتية: «حصل امتزاج عميق بين المكونات البربرية والعناصر العربية المنتمية إلى فروع من قبائل بني هلال وبَنِي سليم خلال عهود مضت»[2]، وقد أدَّى هذا الامتزاج إلى اعْتِنَاءٍ إنساني وثقافي.

(1) A. Bel, *op. cit*., p. 217.

(2) A. Bel, *op. cit*., pp. 205-209.

2 - العقيدة

تمهيد

الحديث عن العقيدة ذو شؤون وشجون. لكن، ما هي العقيدة؟؛ للإجابة نرجع إلى فقه اللغة، ولنحلل الجذر (ع.ق.د)، لنستخرج منه نواة صُلبة لإنجاز التحليل، ومدار معنى هذه الجذر هو الشدُّ والإحكام لأي شيء، العقيدة إذن ما شَدَّ القلب وأحكم الضمير، وإذ كل شيء مادي، أو معنوي، يستحق الاستمرار، فإنه يجب أن يتصف بما أشرنا إليه، العقد أو العقيدة ضرورة وجودية في كل زمان وفي كل مكان، سواء أكان المعتقد فيه محسوساً أم معقولاً.

على أننا سنقتصر على الإشارة إلى عقيدة البحر الأبيض المتوسط، ورأس العقيدة فيه وجود إله واحد في الديانات السّماوية الثلاث، اليهودية مجسِّمة، والمسيحية مُثلثة، والإسلام مُنَزِّه، له إله واحد لا تدركه الأبصار، لا يَلد ولا يُولَد. إذن التوحيد مفهوم عام يحتوي على درجات، أعلاها التنزيه المطلق، وأدناها التجسيم المطلق. وتبعاً لهذا وقع الخلاف والاختلاف بين الموحدين، فألفّوا كتباً في المِلل والنِّحَل، والفِرق، والفرق بينها، وفي الإيمان، وشُعَبِه...

الهدف من هذه الإشارات والتنبيهات، هو أننا سنقتصر على ما وُجد بين ظُهْرَانَيْنَا في هذا الصقع الغربي، من مِلَل ونِحَل، وعلى بعض آراء المؤلفين الذين ينتمون إليه، بل إن

ما يهمنا هو الكيفية التي تناول بها ألفريد بيل هذه المسألة في هذه البيئة، كونه مستشرقاً محكوماً بالمناخ الثقافي الخاص الذي نشأ فيه، ومعتمداً على روايات وأخبار متداولة.

أ - ما قبل المرابطين

تقول المعلومات العامة إن البربر بدؤوا يثورون منذ القرن الثامن على تعاليم الدين الإسلامي الذي له معتقدات لا قِبَل لهم بها، فالبربر كانوا يعيشون في جَوٍّ إِحْيَائِي طبيعي يُدْرك ما فيه بالبصر أو يُلْمس باليد، أو يُسْمعُ بالأذن...

- **إمارات تابعة**

لقد ثاروا ضد العقائد والمذاهب الواردة مع الإسلام، مثل السنَّة والشيعة والخوارج. فقد كونت السُّنَّة إمارة الأغالبة في تونس، ودولة زناتة واليفرانيين في المغرب، وإن كان ولاؤهم للدولة الأموية، وأسست الخوارج الذين كانوا في المغرب الأقصى والأوسط الدولة المدرارية بسجلماسة التي تعاقب على حكمها كثيرون، وأشهر أمرائها أبو القاسم سمغو وعَقِبُهُ، والدويلة الصُّفرية في تلمسان/ ملوية، وأما الشيعة (الإدريسية) في المغرب، فقد تحدث عنها الإخباريون بتفصيل، فذكروا أمراءها، وأسماءهم، ومواضع سيطرتهم، والأحداث التي وقعت لعهدهم، ولعل الدولة الفاطمية الشيعية

التي انتصرت على الأغالبة أهم تلك الإمارات[1].

تلكم إمارات عديدة، تنازعت على حكم هذا المجال، عَرفت أوقات ازدهار، وفترات دَمار، فإذا كانت كلٌّ من سجلماسة وتاهرت مراكز تجارية نشيطة، فإن تلك الإمارات لقيت صعوبات كبيرة في فرض عقائد ومذاهب غريبة على المجال، لكونها مشرقية.

- **إمارات مستقلة**

كان يوازيها إمارتان مستقلتان عن المشرق، إحداهما بَرَغواطة، وثانيتهما غمارة.

كان مقر برغواطة تامسنا[2] بزعامة صالح بن طريف على

---

(1) هناك مؤلفات كثيرة عامة وخاصة، نذكر من بينها:

- A. Bel, *La religion Musulmane en Berbérie*, Dar Alaman, Rabat-Maroc, 2017.

- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، ط: 2، المطبعة الملكية، الرباط، 1990.

- الحسن الوزان، **وصف أفريقيا**، ترجمة من الفرنسية، محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط: 2، 1983.

(2) الحسن الوزان، الكتاب المذكور، "مملكة فاس. تامسنا"، ص 194-201 وابن أبي زرع، الكتاب المذكور "الخبر عن غَزْو عند عبد الله بن ياسين =

ساحل المحيط الأطلسي الذي فيه موانئ عديدة: الرباط، وسلا، وأنفا، وأزمور، وآسفي.

يُنقل عن الإخباريين أن صالح بن طريف ادّعى النبوة، وصَدَّقَه أتباعه، ووضع لهم ما يحاكي القرآن أسلوباً ومضامين، يتكوّن من ثمانين سورة مأخوذة أسماؤها من شخصيات أسطورية مذكورة في القرآن الكريم، وفي العهد القديم، لكن محتواها، يُخالِف أو يناقض ما جاء في كتاب الله.

لهم صَلاَتَهم، لكن لها أوضاعاً جسدية وحركات خاصة تُؤَدَّى باللغة المحلية (البربرية)، وتبعاً لهذا تعرّض البرغواطيون إلى هجوم عنيف من قِبَل المؤرخين الذين جاؤوا من بَعْد، فوصفوهم بأقْذَع الصفات، مثل المجوس والزنادقة والضَّالِّين والكَفَرة.

وأما عقيدة غمارة[1]، فهي ليست على حال واحدة، فهي أحياناً كعقيدة الخوارج، وأحياناً تشبه - في بعض جزئياتها-

= مجوس برغواطة، وذكر مذهبهم السخيف، وديانتهم الخسيسة"، ص 164-169.

- A. Bel, *op. cit.*, «La Religion des Baragwata» , pp. 170-175.

(1) A. Bel, *op. cit.*, «La Religion des Gomara», pp. 175-182. ابن أبي زرع، الكتاب المذكور، ص 280؛ الحسن الوزان، ص 307.

العقيدة السنيّة، وقد ادَّعت غمارة المعجزات والخوارق مثل الأنبياء، كعيسى وموسى ومحمد ﷺ، ووجدوا أتباعاً كثيرين من السكان المحليين السُّذَّج، مع أنهم بَدَّلوا كثيراً في العبادات، كالأركان الخمسة، وفي المعاملات، مثل الزواج والميراث، مؤوّلين الآيات القرآنية والسيرة النبوية على هواهم.

ب - المرابطون والعقيدة

استمرت تلك الإمارات، وديانة برغواطة، وغمارة، مدة طويلة، إلى أن جاءت دولة المرابطين التي حاربتهم بقساوة مدة طويلة، تحدث عنها المؤرخون، وبناء على هذا، قُطع دَابِر القوم الذين ابتدعوا، أو كفروا.

عرف القرن الحادي عشر تحوّلاً كبيراً مع مجيء المرابطين من الصحراء الغربية، وقدوم العرب الهلالية من الشرق، وما بين هؤلاء وهؤلاء عُرَى وثيقة مصنوعة من الخيال، ومن الواقع أيضاً، ذلك أن هناك أسطورة مؤسِّسة هي العنصر العربي الجامع بينهم[1]، وبداوة الصحراء، والترحل، والعصبيات، كان يجمع بينهما جاذبية شمال المغرب

(1) انظر أبي زرع، الكتاب المذكور. يلح على النسب الحميري للمرابطين، ص 151-154، ويأتي بأقوال نثرية وشعرية.

والأندلس، والرغبة في الدفاع عن الإسلام، **هكذا تعاضدت العصبية القبليَّة والعقيدة، فأنتجت دولة قوية معتمدة على رُؤَى وحدوية**: توحيد الألوهية، وتوحيد الأمة، وتحقيق الأجر والثواب في الدنيا والآخرة، ومن كان يقوم بهذا الإنفار، ويدعو إليه، هم المؤهلون شرعاً وعادة، أي الأمير والأعيان والوجهاء.

- **عقيدة السلف**

لقد صارت هذه العقيدة فَرْض عين، أو ميثاقاً غليظاً، وهو ما يسمى **بالبيعة**، إذ كلما نُقض الميثاق تثور الفتنة، وتَعُمُّ الفوضى، فيُعزل الأمير، ويُنصَّبُ أميرٌ مكانه، وكلما تُهَدُّ أركان دولة، تؤسس دولة أخرى، تلك سُنَّة التاريخ من حيث هو، وتاريخ المغرب خاصة. ذلك ما نَظَّر إليه ابن الخطيب وابن خلدون.

روضة التعريف بالحب الشريف[1] لابن الخطيب، برنامج مفصل لما يجب تجنّبه، حتى يمكن المحافظة على التوحيد الملائم للسياق السياسي والثقافي السائد في الغرب الإسلامي، وما يتعيّن تجنّبه هو "الأصول المفسدة"، ومن

(1) ابن الخطيب، **روضة التعريف بالحب الشريف**، تحقيق محمد الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1970.

بينها قِدَم العالم، والاتحاد والحلول، والقول بالتناسخ[1].

مقدمة ابن خلدون[2] الصديق الحميم لابن الخطيب سارت في هذا الاتّجاه العملي الذي لا يهتم كثيراً بما يشغل الفلاسفة والمعتزلة، لكنها **تدعو إلى التوسط**، وإلى **جعل الإمامة قضية مصلحية اجتماعية**[3]، ومن هنا، فإن السياق الذي نحن فيه تغلبت فيه **العقائد العملية على العقائد الإيمانية**، ولعل هذا هو المقصود من قول ابن خلدون: «علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم»[4]. والفلسفة لا نَفْعَ فيها، لأن ضررها في الدين كَثِيرٌ[5]، وصناعة النجوم مُضِرَّة للدين والدول[6].

- **عقيدة الأشعري**

اتّبع الغرب الإسلامي العقيدة الأشعرية والباقِلانية، مع مراعاة الفروق في الزمن، ولذلك فإن المرابطين يمكن أن

(1) ابن الخطيب، ما ذكر، ج، 1، ص 214-238.
(2) ابن خلدون، **المقدمة**، نشر السعيد المندوه، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، ط 2، 1997.
(3) ابن خلدون، ما ذكر، ج 1، ص 148.
(4) ما ذكر، ص 150؛ وانظر "**خلاصات وآفاق**".
(5) ما ذكر، ص 210-216.
(6) ما ذكر، ص 216-225.

يُنظر إليهم **في إطار السلف الذي اعتمد على الآيات القرآنية المدنية**، ولهذا، فقد نحترز من وصف المرابطين بأنهم ذوو عقيدة أشعرية، أو تصوّفية، لأن الأشعرية والصوفية بدأت مع الدولة الموحّدية، ثم اشْتَدَّ عودها في العصر المريني[1].

يتضح من هذا أن مجيء أمواج بشرية من المشرق ومن الصحراء الغربية، مُسَلَّحين بدين يراعي الضرورات والحاجات أولاً، ثم وجدوا في عين المكان مذهباً مالكياً يتبنَّى نفس المراعاة، فجعل عقيدة الوحدة والتوحيد للعقيدة وللأمة لغايات وأبعاد عملية تتحكّم فيها الصيرورة التاريخية التي تتطلب الاعتماد على النَّص لتحقيق وحدة الدولة.

- **الواقع والمثال**

حاولت العقائد العملية أن تتعالى على الخصوصيات الإقليمية، فكانت تنجح أحياناً، لكن قوانين العمران تجعل ذلك النجاح مؤقتاً، لأن الدول في تجديد دائم مناجزة أو مطاولة[2]. مجتمعات الغرب الإسلامي فسيفساء من القبائل، والتجمعات، وتضاريسها شديدة التنوع، **فكان الواقع يتغلب على المثال، والعُرف على العقيدة.**

---

(1) توفّي الأشعري (ت 330)، والباقلاني (ت 403).

(2) ابن خلدون، ما ذكر، ص 320-323.

ما لاحظناه في الغرب الإسلامي لعله كان موجوداً في كثير من الأمم. فلربما كان هذا الوجود من بين الأسباب التي أدت إلى إنشاء علوم جديدة، مثل الأناسيات والحفريات خصوصاً. وقد صار في هذا الاتجاه الأناسيون الفرنسيون، فقد استندوا إلى بعض الخصوصيات الجهوية ليُفتوا حكومتهم لإصدار قوانين خاصة، مركّزين على جهات الأطلس المتوسط.

جـ - تركيب

عاش ألفريد بيل في معمعة هذا الغليان السياسي والعلمي، لكنه لم يذهب مثل زملائه المتطرفين، ولم يَسِر في ركاب المؤلفين المتحاملين الواقعين تحت هيمنة الوحدة، هكذا عدّ تدين بورغواطة وغمارة المستند إلى متنبّئيهم إصلاحاً لدين محمد العربي، ليتلاءم مع أوضاعهم البربرية[1].

تبنىّ ألفريد بيل هذا الموقف المعتدل في دراسة التصوف، فقد خصّص له الفصل الثاني المعنون بـ"العلم والدين، نموّ التصوف" من الكتاب الثالث: "البرابرة والإسلام من القرن الثالث عشر إلى اليوم"[2]. وكتب أبحاثاً خاصة به،

(1) A. Bel, *op. cit*., pp. 178-182.
(2) A. Bel, *op. cit*., pp. 305-358.

مثل: "سيدي بومدين وأستاذه الدقاق في فاس"[1]، و"الإسلام الصوفي"[2]، و"الصوفية في الغرب الإسلامي في القرن الثاني عشر وفي القرن الثالث عشر"[3].

كتب المؤلف أبحاثه هذه، وهو على علم بما كتبه الفرنسيون عن التصوف والزوايا، وبتأويلاتهم السياسية والعرقية المتأثرة بالتجربة الأوروبية الاجتماعية والسياسية، وبعلم الأناسة، إذ جعلت الزاوية بمثابة إمارة، وخصصت التصوف بِعِرْق معين، بحيث إن شيخ الزاوية ليس إلا مضاهاة لشيخ القبيلة البربرية أگرام[4].

تبين أبحاثه في التصوف أنه مكون إنساني، وممارسة عريقة تتطور بتطور المجتمعات، هكذا يرى: «بدأ يأخذ مكانة سامية شيئاً فشيئاً»[5] في العصر الموحدي، فقد شرع الصوفيون يكشفون عن أوجههم الأقنعة، ثم صاروا من الأعيان، بل من رؤساء إمارات، ودويلات.

---

(1) A. Bel, «Sidi Boumédiène et son Maitre». Ed. Daqqaaq à Fès, in Mélange René Basset, Paris, Leroux, 1923.

(2) A. Bel, «L'islam Mystique», *in R.A.*, N° 334, 1928.

(3) Le Soufisme en Occident Musulman au XII^{e} et au XIII^{e}, in Annales de l'Institut d'Etude Orientales d'Alger, 1936.

(4) A. Laroui, *Les Origine*… «D. Définition de la Zaoua», pp. 150-154.

(5) A. Bel, *op. cit.*, p. 321.

لقد أوضح كثيراً من العوامل التي ساعدت على هذا الازدهار، سَنُشِير إلى ما يهمنا منها، وهو تعزيز ممارسة الشعائر التي تخفف من قساوة البيئة الطبيعية: (الجفاف، والأوبئة والفتن...)، ومن حدة النزاع بين القبائل والعصبيات، ولا يقوم بهذه الأدوار إلا خلفاء الله في أرضه الذين هم المتصّوفة ذوو البركات في حياتهم[1] وفي مماتهم بأضرحتهم. تبعاً لهذا فإن القبائل المغربية بِمستقريها ورُحَّالها صارت تخلق أولياء الله، وتصنع لهم نَسَباً شريفاً ليتبرّك بهم العلماء، والعوامّ، والبربر، والعرب، وبطبيعة الحال، فإن لهذا التبرك ثمناً هو "الفتوح" والهدايا، والقرابين.

جرياً على ديدنه التوفيقي، حرص على أن يؤكد أنّ: «إدماج التصوف في الإسلام الرسمي منذ القرن السابع عشر» عزّز الهيمنة التصوفية، فأصبح ولي الله: «الوارث للألوهية الوثنية في العقيدة البربرية الإسلامية»[2].

(1) Ante Mortem.
(2) A. Bel, *op. cit*., p. 342.

3 – الشريعــة

إضاءة

مفهوم الشريعة مثل مفهومي القبيلة والعقيدة، فضفاض، يحتاج إلى تحليل حتى يتبيّن معناه الأول، ثم معانيه الفرعية التي تتوالد عنها شبكات علائق متماثلة، ومختلفة، ومتباينة. لهذا فإننا سننظر في جذر: (ش.ر.ع) مستخلصين منه ما يفيد مقصدنا في هذا البحث، من المعاني: الطريق والنهج الذي يُسارُ فيه ذهاباً وإياباً، وإيراد الحيوان إلى الماء وإصداره عنه في ذهاب وإياب، والعادة، والدَّيدن، والدأب.

جذر: (ع.و.د) يفيد الصّرْف والرَّدّ، والصدود والإقبال، والرجوع إلى الأمر الأول، والعود المتكرر، العادة، إذن، ما يعود إليه الإنسان مراراً وتكراراً.

وجذر: (ع.ر.ف) يدل على المعرفة والتدبير، وما استقر في النفوس من شهادات العقول، وتلقّته الطِّباع السليمة بالقبول.

أ – مغالطة

تلك ثلاثة جذور تشترك في تكرار الفعل والعمل، ومن ثمة، **فهي مترادفة، وليست متضادة، وبالحرِيّ ألّا تكون متناقضة**. لذلك فلا تصح المقابلة بين الشريعة/العادة، والعرف/ الشريعة. وقد نصَّ المعجميون على هذا، فقالوا:

"الشريعة" ما شُرِعَ من السنن والأحكام، و"العرف" ما جعله علماء الشرع من الأحكام، والفرق بينهما أن الشرع من عند الله، وأن العُرف من جَعْلِ البَشَر، تلك المقابلة، إذن، بُنيت على تصوّر ما ورائي.

المفردات الثلاث تتعلق بضرورات وحاجات إنسانية، وإذ هي كذلك، فقد بنت الأمم شِرْعَتَها ومنهاجها على العادة والعرف، وجعلتها مصدراً من مصادر قوانينها، كما يؤكد ذلك المختصون في الميدان، ويعثر القارئ على هذا التصور عند علماء الأصول والمقاصد، يقول الشاطبي: «لابد من إجراء العموميات الشرعية على مقتضى الأحكام العادِيَّة»[1].

العادة المعززة بالعُرف ليست شيئاً متعالياً. نعم إن بعضها إنساني أبدي، وبعضها الآخر، كُلَّ محيط، هو في شأن، تبعاً لأحوال المناخ، وطبيعة التضاريس، ودوران الأفلاك، والكواكب، ونوع مسخّرات ما في الأرض، لذلك، فإن التَّعميم المطلق خاطئ، كما أن التَّنْسِيبَ المفرط جائر.

وَضْعُ المغرب نَمُوذَجٌ لهذا التنوع، فهو يتكون من قبائل أتت من الصحاري الغربية[2]، ومن قبائل أعرابية

(1) محمد مفتاح، **وحدة الفكر المتعددة. قراءة جديدة في الأصول**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، 2016، ص 273.

(2) من كون دولة المرابطين.

وعربية[1]، وفدت من الشرق، ومن أمازيغ[2] يسكنون منطقة الريف، ويستوطنون إقليم سُوس، ويَتَحَصَّنُون بجبال الأطلس الكبير والأطلس المتوسط والأطلس الصغير، ومثل هذا التنوّع في الجزائر وفي تونس وفي ليبيا، وكل من هؤلاء السكان له أعْرَافه وعاداته وليدة المحيط.

لقد نتج عن هذا التركيب المجتمعي اختلاف في المواقف، وفي الرؤى، حول المعضلات التي تثيرها الحياة، ويمكن تلخيص الأمر في موقفين متقابلين، موقف رجال الشرع، وموقف أهل العُرف.

ب - خِداع الوثيقة

رجال الشرع مدنيّون يسكنون مراكز حضرية مثل فاس ومراكش ومكناس وسلا..، وعلى رأسهم المخزن بِدَوَالِيبِه الإدارية، وحاشياته المتعددة، وهؤلاء كثرة كثيرة جعلت المؤرخين والأناسيّين يهتمُّون بترتيبهم، وبدلالة أسمائهم، وبالتعرف على أدوارهم، وقد كتب الكثير حولهم، إلا أننا سنستند إلى رأي الأستاذ عبد الله العروي في هذه المسألة.

---

(1) القبائل الهلالية.

(2) السكان الأصليون.

اعتمد العروي على المؤرخين المخزنيين، وكُتّاب التراجم الذين ينتمون إلى الدائرة نفسها، كونهم جزءاً من الجهاز المخزني، ومن ثمة فهم محكومون بمتطلبات محيطهم[1]، لهذا فإن الخطاطة الملخصة التي اقترحها المؤلف قابلة للنقاش[2].

اتَّبع الكاتب الترتيب الآتي: الشرفاء، والعلماء، والأعيان، والخاصَّة، لكننا نرى أنه يتعيّن إعادة الترتيب على معايير أخرى، وهي البحث عن مستند صلب ذي خواص ضرورية وعَرَضية[3]، لهذا اعتقد أن "الخاصة" هي الدرجة الأولى، إذ تعني التفضيل والاِختيار بإطلاق، لذلك يقال: خاصة الملك المقربون من رجال دولته، وعليه فالخاصة لها الصفات الآتية: (مال+ ترف + علم + تدبير)، وسنعدّها نحن بمثابة جسد الإنسان، ولعل مقلوب: (خ.ص) ← (ص.خ)، يتعلق بإحدى آلات الإدراك الجسدي التي هي الأذُن، إذ يقال: أصاخ له إذا أنْصَتَ إليه، فإذن هم أهل النصيحة والرأي.

ثم يليهم في الرتبة الفقهاء الذين ينصحون للمَلِك، وخواصهم هي: (علم + تدبير + مال)، وتبعاً لهذا، فإن رأي

(1) ابن زيدان، والزياني، وأكنسوس...
A. Laroui, *op. cit.*, «III. Les ordre », pp. 91-110.

(2) A. Laroui, *op. cit.*, p. 125.

(3) نستثمر هنا: فقه اللغة، والتحليل بالمكونات.

الأنجلو سكسونيين مرجَّح على رأس الفرنسيين[1]، إذ إنّ جذر (ع.ل.م) من معانيه الشَّفَة، ومن مقلوباته (عمل) الذي يتطلب مشاركة جميع الآلات الحسِّية والملكات الذهنية.

ثم تأتي رتبة الأعيان والأيدي والأرجل، وجذر(ع.ي.ن) يعني العين الإنسانية التي تُرى بها الأعيان، وهي تقع ضمن إطار عام هو الوجه، وعليه، فلا ينبغي حصر الأعيان في التجارّ، وفي الْحَنَايْطِية"[2]، بل تشمل الجيش بما فيه من خيل ورَجْلٍ ورُماة، ومن هنا يتاح جمع أهل المال بأهل السيف والقتال، كما يدل على ذلك: (عَيْن)، و(نَعْيٌ).

وأما الأشراف، فهي من: (ش.ر.ف)، ومن معانيه أشراف الأنف والأذن، أي تلك النتوءات الموجودة في هذين العضوين، وكل هذا يفيد أن ليس لهم قيمة أساسية، لكنهم يستطيعون تحقيق بعض المكاسب بهذه الصفة[3].

الملك وحاشيته المتشعبة ذات الوظائف المتعددة تحتاج إلى عقيدة جامعة، وتشريع مُسَوِّغٍ لإجراءات تساعد على تقوية الحكم، وضمان استقراره، ومن ثمة، فإن **التدّين الذي فرض نفسه مَدَنِيٌّ حَضَرِيٌّ لأناس مستقرين ذوي نُظم**

(1) A. Laroui, *op. cit*., p. 98.

(2) الخواص: (مال + سبق).

(3) الخواص: (الاحترام العرضيّ).

وتنظيمات[1]. ويزعم هؤلاء أن هذا التدين هو السُّنة الحقّ، وكل من خالفه فهو ضال مُضِلّ.

جـ - عمل أهل المدينة

على أن متطلّبات الْمُلْك من الأموال، التي عليه أن يُدَبِّر بِهَا شؤونه المحلية والدولية، كانت تفرض عليهم أن "يبتدعوا بِدَعاً" يدافعون بها عن **جواز فرض جبايات، ومعونات، ومُكوس**، إذ كان يعارضها- أحياناً كثيرة- بعض الفئات من أهل المدينة، وكثير من أهل البادية. وقد كانت السلطة تستفتي الفقهاء فَيُفْتُون بموافقتها للشرع، إرضاءً للسلطان، مع أنهم كانوا مقتنعين بأنها تُفْقِر السكان في المدينة وفي البادية على السواء[2].

إنّ مثل هذه الأوضاع التاريخية عرفتها كثير من البلدان الإسلامية عبر كل العصور، ومنها مَهْدُ الإسلام يثرب/ المدينة، فقد كان فقهاؤها يجتهدون للإجابة عن المستجدات في المجتمع، ومن ثمة شاع تعبير: "**عمل أهل المدينة**"، وقد قاس الفقهاء المغاربة على هذه السنّة، فاجتهدوا، وسُمِّي صنيعهم بـ"العمل الفاسي"، كل عمل من الأعمال يمكن أن

---

(1) أمناء الْحِنَط المختلفة.

(2) A. Laroui, *op. cit.*, pp. 289-298.

يعتبر بدعة في البداية، لكنه حينما يتكرر يصير عادات وأعرافاً، ما يعنينا هنا هو التأكيد على أن هذه الأعراف والعادات كانت تتكامل مع الشَّرْع، وأن الشَّرْع كان مُكَمِّلاً للعرف ومُجَوِّزاً لِلْعَادَة[1].

في ضوء **العمل الفاسي** ومَنْ حَاكَاه، اجتهد فقهاء قبائل البادية، سواء أكانت مستقرة أم مترحِّلة لِحَلِّ مشكلاتهم التي ليست مشكلات مدينة فاس أو مراكش، لأن **تلك القبائل كانت تعتمد على تربية الأنعام التي تضطرها إلى الرّحلة، طلباً للماء والمرعى، أو على فلاحة معاشية يُسَدُّ بها الرمق**.

لقد فرض عليها هذا النوع من الحياة بيئات مختلفة، فَمَيَّزَتْها في لباسها وفي أكلها، ومع هذا التمايز، فإنها استندت إلى العادات والأعراف مع قليل من الشرع.

د - مصارعة

لقد تجرّد علماؤها وطلابها وشيوخها و"أمغاروها"[2] للدفاع عن أفعالهم، وأعمالهم، في ألواح سوس، وفتاوي غمارة، وكتب مُتصوفة الريف، على أن الأناسيين والمؤرخين يرون أن قبائل الأطلس المتوسط كان لها وضع خاص،

(1) في هذا الإطار ينبغي أن تقرأ كتب البدع.
(2) أمغارون- جمع أمغار- وهو شيخ التصوف.

ولذلك كثيراً ما وُصفت بأنها **قبائل سائبة، وأهل جاهلية، وذوو فسوق وفجور من قبل الإسلام السنّي الرسمي**.

إن هذه الأحكام فيها كثير من القساوة، ذلك أن قبائل الأطلس المتوسط كانت تتحرك في فضاءات فسيحة، لها طلابها، وعُدُولُها، يَشْدُون بعض من أوَّليات الدين الإسلامي، لأنها كانت بها مسالك تجارية، ولها احتكاك بِقُرَى ومدن مثل طرق المسافرين التي كانت تربط فاس بمراكش عبر تادلا، وطريق فاس/ تافيلالت/ تَنْبُكْتُو، وطريق فاس المؤدية إلى سلا، كما كانت فيها مدن وقرى: سلا، وتلفَلْفَلْت، وجبل زرهون/ ومكناس/ وفاس... وتَاغية، وجامع الحمام[1].

دفع هذا التميز سلطات الحماية التي كانت إدارتها تشتمل على نخبة كبيرة من الباحثين في علم الأناسة وعلم الاِجتماع، أن يخصّوا المنطقة بعناية فائقة، فجرَّبوا ما لهم من نظريات في الأطلس المتوسط، هكذا أسّسوا ثانوية أزرو، وصاغوا الظهير البربري على نار هادئة سنة 1930[2]، **مستغلّين شطط المخزن الذي كان يقوم بحركات تأديبية لاستخلاص المكوس، ولمنعهم من الرعي في السهول حتى يؤدّوها وهم صاغرون : مثل آيت آمالو، وآيت عطا**...

(1) ينظرُ في هذا كتاب الحسن الوزان (ليون الأفريقي).

(2) بدأ التفكير في هذا الأمر مع بداية الحماية 1912.

ما يهمنا نحن هو أن نشير إلى حدوث مواجهات عنيفة مع الْحَامِي الْمُحتل، والإسلام السّلفي المدني الوطني الذي يدافع عن وحدة الأمّة ووحدة السلطة ووحدة العقيدة ووحدة المذهب، وكان هذا الإسلام في المدن العتيقة يقاوم بقراءة اللطيف[1]، وبالدعاء إلى الله لِينتقم من المستعمر الغاشم الذي كان يمثلّه الأناسيون الوصفيون الذين يكتفون بالمراقبة، ويسجّلون ما يرون، ليقترحوا على دولتهم لتأخذ قرارات مناسبة.

هـ - موافقة

لكن مجموعة من المستشرقين الفرنسيين- وعلى رأسهم جاك بيرك وألفريد بيل وغيرهم- كانوا يسلّمون بتداخل العرف والشرع، وغلبة مراعاتهما معاً تبعاً للمحيط، فقد يتغلّب العُرف على الشرع حيناً، وقد يحصل العكس حيناً آخر، يقول عبد الله العروي «يقع التحكيم في غالب الأحوال بِحَسْبِ العدالة، دون مراعاة كبيرة لِصُورِيَّةِ الفقه، لكن الفقه لا يرفض- مع ذلك- لأن الفِصَالَ جزءٌ من وسائل التركيب مع العرف، ومع مباركة القاضي، أو ما يقال: إنه قاض يمكن أن تُنْقَذَ المظاهر»[2].

(1) ما زال أبناء هؤلاء الوطنيين يذكرون هذا التاريخ بزهو وافتخار.
(2) عبد الله العروي، المرجع المذكور، ص (142) في النسخة الفرنسية.

لقد فرض إذن منعطف التوفيق نفسه، التوفيق بين كل شيء، فصار عقيدة لكثير من الأناسيين واللسانيين والسياسيين، وهكذا صار إيماناً لا يَتَزَحْزَح عند ألفريد بيل في أبحاثه المتعددة، سواء أكانت متعلقة بالمجتمع (البربر والعرب)، أو التصوف (التصوف الشعبي والسنيّ)، أو بطقوس الأضحية (الدين والوثنية)، أو بالحضارة (الخزف المغربي والأوربي).

ذلك هو المنعطف الذي كانت وراءه فلسفة مستنيرة، ترفض المركزية الأوربية المنغلقة:

خاتمة

لقد صَدَّق تطور التاريخ ما تَبَنَّاهُ المعتدلون الموفقون، فها هو الإسلام دين الدولة الرسمي تصاحبه أفعال وأعمال عُرفية عميقة، وها هي اللغة العربية واللغة الأمازيغية تعيشان جنباً إلى جنب، وها هي الجهة الموسّعة في الأفق المنتظر، لكنها ستبقى تتحرك بروح إمارة المؤمنين.

تلك سُنن الكون، وهي الوحدة المتعددة، أو التعدد الآيل إلى الوحدة، إنها دورية، لكنها منتجة.

الفصل الثالث

صدق الشهادة

1 - في فرنسا

صحة ألفريد بيل كثيراً ما كانت تخيفنا لكنَّه كان يهزم المرض في كل مرة بطاقة مقاومة كنا نتمنى أن تستمر، إلا أن نبأ 18 فبراير العظيم جعلنا نحزن بفاجعته، تلك هي وفاة العزيز ألفريد بيل، وحسب قول أقربائه، فإنه كان يرغب في أن تكون جنازته عادية، لذلك دُفِن في مكناس، على نَجْدٍ كان يُشرف منه على مقبرة سابقيه بجبل زرهون[1]، متأملاً متعّظاً، لقد كان يرتاد ذلك المكان كل ربيع.

من مسقط رأسه جُورَة[2] إلى هذا الجبل المغربي، فإن ألفريد بيل كَبِر في حياة مسربلة بأبهى الخلل الأخلاقية المنسوجة من أوثق الفضائل الفرنسية، وإذا ما أردنا أن نكون دقيقين في التعبير: فضائل البادية الفرنسية ذات التقاليد النبيلة:

---

(1) جبل زرهون يقع بين فاس ومكناس، فيه زاوية إدريس الأكبر، ابن أبي زرع، الكتاب المذكور، ص 381.

(2) جورة : Jura.

الاستقامة والكرامة الطبيعية دون عَجْرَفَة، والإحساس العميق بالواجب، وحب العمل، والترفع، وغياب طبع الخديعة، وكرم القلب، والتسامح التلقائي، والتفاني الحثيث للدفاع عن القضايا العادلة، والأعمال النافعة.

هذه الخصال الحميدة جعلت له صداقات خالصة مخلصة، وإتقانه لمهنته سيبقى مثالاً يحتذي به الشباب، (يُنظر "المسار").

2 - في الجزائر

وخلال سنتين من العمل في هذا الجو الودّي والنشيط، نال ألفريد بيل شهادة في العربية، ثم أضاف إليها شهادتين في الجغرافية وفي التاريخ. وبإشراف أوغستين برنارد[1] عكف على إنجاز دراسة جغرافية خاصة بـ: «البحيرات والمستنقعات والسبخات في أرض الجزائر» وبحث تاريخي عنوانه: "**بنو غانية وصراعهم ضد إمبراطورية الموحّدين**"[2]. لقد أنجز هذين البحثين في مستوى يفوق ما اعتاد الناس عليه في أبحاث الطلبة، إلا أن بحث السبخات تجاوزته الدراسات اللاحقة،

(1) Augustin Bernard, *Les lacs d'Algerie*, Chotts, et Sebkas, Oran, 1902.

(2) A. Bel, *La religion*..., pp. 224-258.

في حين أن البحث التاريخي ما زالت له قيمته، إنه بحث يَطلع القارئ على مجريات أحداث العصور الوسطى في شمال أفريقيا، في أثنَاء عهد بني غانية ذوي الملاحم العنيفة، إنَّهَا حقبة وسطى بين دولة المرابطين الصحراوية وبين عرب بني هلال. وقد هيأت هذه الحقبة المجال الملائم لقيام دول بربرية خلال القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر.

لقد عالج الأحداث، ورتّب وقائعها بضمير مسؤول، وبإضاءات هادية، موظِفاً مناهج جيدة (...)، ثم نشر كتابه الأول في مدرسة تلمسان التي كان فيها أستاذاً مدة ثلاث سنوات، بناءً على تدخّلات أستاذه بَاسِّيه الذي كان له مركز علمي ثبَّت به حياة ألفريد بيل، ووجَّه نشاطه العلمي.

في سنة 1899، لم تكن المدرسة استقرت بعدُ، في القصر الموريسكي الجميل الذي بُنِي مقراً لها، فقد كانت لا تزال في دار كولوغليس، غير بعيدة عن مشور أمراء بني عبد الواد، لكنها كانت قريبة من ضريح سيدي إبراهيم. تقاليد البحث والعلم والتقوى المتجذرة في الحي الملكي شملت هذه المدرسة المتواضعة المظاهر، وقد بقيت تلك التقاليد حيّة فيها بفضل ثلاثة أساتذة مسلمين.

التحق بهم ألفريد بيل فحاز ودهّم، وخصوصاً أكبرهم سيدي أحمد بَلْ بَشِير الذي وضع تحت تصرّف هذا الباحث

الشاب ما له من وثائق ومعرفة، وبالإضافة إلى استفادته من أولئك الشيوخ، فإنه عثر على صديق مؤهّل لفهمه وحثه على العمل، ذلك هو وليام مارسيه[1] الذي كان في بداية التدريب على البحث وعلى إدارة الدار (المدرسة).

المدارس الجزائرية- وخصوصاً مدرسة تلمسان- حيث كان يدرس دُوتّه وديستينغ وگود يفروي، ديمومْبِين وأگوست كور[2] (...) كان كل يوم يحصل فيها حديث مع الشيوخ حول مسألة تكون منطلقاً للعقول المتوثبة المستعلِمة الباحثة، وقد كان هذا الأمر مفيداً للتلاميذ، والطلبة، والأَساتذة، ليتعمّقوا في روح الإسلام، ونظراً للرغبة الجامحة في التعلّم، كانت العطل المدرسية تُستغلّ لإشباعها، لهذا فإنها كانت وسيلة للجَوْس خلال ديار الجزائر لتوسيع مجال البحث. هكذا زيَّن وليام مارسيه لصديقه ألفريد بيل متعة القنص، وفائدة الحديث مع راعي غنم، أو طالب قرية.

دفع الميل إلى الواقع الحي الضروري للعلم بأسرار المغرب الكبير ألفريد بيل إلى الانغماس فيه، وهكذا، فقد كان يختار مقام عُطَلِه ببني شوكران من جماعة سان لوسيان[3]

(1) William Marçais.
(2) Goudefroy - Demombines, August Cour.
(3) Beni Chouqran, Saint Lucien.

المختلطة، وفي هذا المكان تلقّى رواية من روايات قصة جَازِية[1]، إنها إحدى قصص ملحمة بني هلال، تتألف من ثمانية وسبعين (78) بيتاً في لغة عامية، وتقدّم معلومات قيّمة عن اللغة، والمكونات الإيقاعية، والوزنية، واللُّوَيْنات النغمية، وعن العادات الريفية، والآلات الموسيقية، والملابس، وبالإضافة إلى كل هذا، فهي مصاحبة بشرح جِدّ مفيد لفهم النص.

لَمَّا ظهر العمل في المجلة الأسيوية أثار انتباه المهتمين، ومع ذلك، فإنه في بحثه هذا لم يَعْدُ أن مَسَّ ميداناً سيصير مفضلاً لديه، ذلك أنه بعد سنتين أبان عن مؤهلاته الحقيقية في المصنف التذكاري الذي أُلِّفَ بتحفيز من روني باسيه بأقلام الأساتذة الجزائريين تكريماً لمناسبة مؤتمر المستشرقين الرابع عشر، وقد كان عنوان دراسته الممتازة: "**شعائر الاستسقاء... عند المسلمين المغربيّين**"[2]. تجتمع في هذه الشعيرة ممارستان: دينية وسحرية في آن واحد. وقد وجدت قبل الإسلام، إلاّ أنه كساها بِبُردَته المقدسة، هذا التبنّي من الإسلام لطقوسٍ سابقة عليه، مع تكييفها لواقعه، كان هو أطروحة المؤلف المركزية، بناءً على ملاحظة الحياة الإسلامية

(1) جازية : Djazia

(2) A. Bel, Quelques rites pour obtenir la pluie en Temps de sécheresse chez les Musulmans Maghrebins... Alger, 1905.

بالبصر وبالبصيرة، وبالمودة الصادقة، وبالاستفادة من عِبَر التاريخ، هكذا فإن ألفريد بيل في أبحاثه التاريخية كَانَ يتفاعل لديه الماضي مع الحاضر بإيجاب، ويضيء أحدهما الآخر.

3 - أهم آثاره

قائمة أعماله التي شرّفته نوعان، هي (أحد عشر) مؤلفاً وأبحاثٌ كثيرة احتلّت مكاناً مرموقاً في المجلات الآتية: المجلة الأسيوية، والمجلة الأفريقية، ونشرة جغرافية الجزائر ووهران، ومجلة هسبيريس، ومجلة تاريخ الأديان، ومجلة الدراسات الإثنوغرافية (البحث في الأعراق)، ونشرة علم الآثار، والموسوعة الإسلامية، ونشر كتب الأخبار وترجمتها، ودراسات علم الآثار المغربيّة كانت تتناوب مع الأبحاث الخاصة بالحِرف، وبأوصاف العالم الذي يحيط به، وخصوصاً عالم تلمسان الصغير، أي عالم هذا المجتمع المتمدين العريق اللبق المتشبث بتقاليده، لقد تبنّى المجتمع التلمساني ألفريد بيل، فصار واحداً من أهْلِه، وخصوصاً بعدما تولى إدارة مدرسة تلمسان.

تلمسان هذه وصف ألفريد بيل في كتب قَيِّمَة مَعَالِمَهَا باعتماد على كتاب **بُغية الرواد** ليحيى ابن خلدون مؤرخ بني عبد الواد، وخصص لساكنيها المسلمين دراسة نموذجية،

ولصنّاعها التقليديين الذين تعلّم منهم تقنيتهم، كما كتب بحثاً جليلاً بمشاركة بروسبير ريكار[1] لصناعة الثياب الصوفية (من الصوف)، وما كان عمله هذا إلا مقدمّة مفيدة لما سينجزه في المغرب على صناعة الفخار. (انظر المسار).

4 - خواصّ فاسيّة

كان ألفريد بيل يتعاون بنجاعة مع اللواء ليوطي المؤسس للإصلاح في المغرب، هكذا كان يرتاد سُكْنَى علماء الدين والبورجوازية، وإقامات عامة الشعب، وقد استطاع بلباقته، وحنكته أن يزيل وحشتهم، وينال مودتّهم لتكلّمه باللغة العربية، ولمعرفته بالإسلام.

بدأ يبحث في الحِرَف، ويجمع المخطوطات، والوثائق المتعلقة بعلم الآثار، ويزور المعالم المُتاحة، ويقرأ المخطوطات العربية، هذه القراءة سهّلت عليه صناعة فِهرس لمكتبة القرويين، إن ما جمعه من مخطوطات، ووثائق، وكتابات عربية، هُو مَا سيكوِّن رصيد متحف البطحاء.

لقد أبْرَز روسبير ريكارد هذه الصفحة الخصوصية من كتاب الحياة المغربية لصديقه القديم (ألفريد بيل). ذلك أن

(1) Prosper Ricard.

الرجل- بعد مجيئه إلى فاس مدة قصيرة، للتجول في المدينة القديمة- لفت انتباهه دارٌ آيلة للسقوط، إنها بيت آسِرٌ بجماله من القرن الرابع عشر، مؤسَّس على تناسب (هندسي رياضي) متناغم، وعلى أسلوب سليم. لقد أثّر وضع المنزل في ألفريد بيل، فتصوّر مشروعاً لإنقاذه من التداعي، لكن هيكل الدار كان على شفا الانقضاض، ومن ثمة فإن الهدم يفرض نفسه، إلاّ أن المالك للدار شعر بما هو مطلوب منه، فعبَّر عن استعداده بأن يَهَبَ كل المواد الضرورية الصالحة لترميمه، كما أن المصالح البلدية تكّفلت بنقل إفريزات التجميل، والأبواب، والحواجز الشبكية المصنوعة من الصنوبر، ولوائح الجص، والمرصعات الْمَرْمَرِية. وقد خُزِنّت هذه المنقولات في مسجد مهجور ببوجلود. لقد أحدث صنيع هذا الواهب الكريم سُنّة حميدة اقتدى بها غيره.

ألفريد بيل توسّل إلى مَظانّ المعرفة، فحصل على وثائق ثمينة، كما توسّل إلى وجهاء المدينة، فتبرّعوا بنقود مُجْزِيَةٍ، وإلى الصنّاع من فخارين وخزّافين، فجادوا ببعض ما لديهم، هكذا حَمل إليه فخّار فانوساً قديماً عَثر عليه في مصنعه، وأهداه ناظر الأحباس خشباً منقوشاً، وكرّمه خليفة الباشا بثلاث مِسَلاَّت جنائزية من المرمر، تشير إحداها إلى أميرة مرينية من أصل مسيحي.

جاء اللواء ليوطي إلى مدينة فاس، فاطّلع على مجهودات ألفريد بيل، فتحمّس غاية الحماسة، وأُعجب نهاية الإعجاب بها، فكلّفه أن يقيم تصميماً لترتيب التحف، وعيَّنَه محافظاً على المتحف.

5 - عودة إلى الجزائر

غادر المغرب في أكتوبر 1916، بعدما أنجز فيه أعمالاً جليلة، واكتسب فيه خبرات ومعلومات كثيرة سيوظفها لصالح تلمسان، وتجلّى ما اكتسبه في السنوات 1917-1918 في سلسلة من الأعمال القيِّمة التي انعكست فيها شخصيته، واستقامة منهجه، ووثاقة معلوماته، وسَعَة معرفته، ومن بينها كتابه **صناعات الخزف في فاس، والكتابة العربية في فاس**؛ وقد نُشِر البحثان في الجريدة الأسيوية، ومن بينها أيضاً **لمحة عن الإسلام** الذي نُشر في مجلة **تاريخ الأديان**[1].

صناعات الخزف في فاس بحث مختص شامل لفنّ الفخّار في المدينة الإدريسية العتيقة. فقد تتبّع فيه عمل الْخَزَّافِ منذ اللحظة التي يُستخرج فيها الطين من المقلع (المترب)، إلى جعله آنية مُشِعَّة بتزاويقها في الدكاكين، والحوانيت. ومما لا

(1) A. Bel, *Coup d'œil sur L'islam en berbèrie*, (Re.H.R), 1917.

شك فيه أن الخزف مَجْدٌ من أمجاد الفن المغربي، لكنه بدأ يتهالك. وقد ذكر ألفريد بيل بعض أسباب التهالك والانحطاط، فقدّم آراء لإسْمَائِهِ، وعلاجه، وهي آراء وخلاصات لا تزال وجيهة ومفيدة.

الحروف العربية المنقوشة لها أبعاد معرفية وعلمية كثيرة، فدراسة المقاييس الذراعية (مقياس 50 سنتمتراً) المستعملة في بيع القماش، وشواهد القبور، ومنضدات الأوقاف، ونصوص التأسيس (التدشين) قدّمت له فرصة وصف المعالم التي تشتمل عليها المدينة، وخصوصاً مدارس العاصمة المرينية، والتعريف بدورها التاريخي وبتنميتها، وتناسقها، وزينتها. إن هذه البنايات الفخمة التي كُنَّا لا نسمع إلا أسماءها، كشف لنا ألفريد بيل أسرارها، وذكر تواريخ تأسيسها، ورتّبها ضمن تطوّر الفن الإسباني الموريسكي.

إن هذا الكتاب ذا الأربع مائة (400) صفحة الذي صار الآن نادر الوجود كان نقطة انطلاق لكل مهتم، ولا يزال ملجأ لكل باحث في صناعات الخزف، وفي الحروف العربية المنقوشة، وأما **كتاب نظرة خاطفة في الإسلام**، فهو نتاج محاضرة ألقاها في المغرب، وإذ إن هذا الموضوع كان مُحَبِّباً إلى المؤلف، فقد رجع إليه، فتناوله بمهارة فائقة، هكذا تعرّض للإسلام ولتاريخه المجيد، ولتطوره، وللتحريفات التي أدخلها التدين الشعبي عليه.

إن ما تناوله في غاية الأهمية، ولذلك فإنه يصير من الغريب أن لا يُنَبّه إلى هذه المنشورات المفيدة والشيقة التي استوحاها من مقامه في المغرب، ومِمّا استوحاه من المغرب أيضاً تاريخ ولي من أولياء الله الذي كان يعيش بين ظهراني سكان مكناس[1] فهو مقدّس، وأصل هذا التقديس في حياة الولي قبل مماته[2] يعود إلى أنه إنسان ماهر وبسيط الفكر في آن واحد. فقد رسم شخصيته بكل موضوعية وبتوثيق رصين.

في السنوات الموالية بقيت المسألة الدينية تُؤَرِّق تفكيره، فكانت شغله الشاغل، فشرع يؤلّف أعمالاً عظمى تهتم بها، وأأسفاه لم يُتح كتابتها وتحريرها، وهي سيدي **بومدين وشيخه الدقاق، والإسلام الصوفي، وخصوصية الإسلام عند البربر، وموسم الأضحيات، والإسلام الرسمي في الجزائر، والتصوف في الغرب الإسلامي، ومناقب بني هذيل، والعنصرة، وشعائر الانقلاب الصيفي**، ومشروع بحث حول **المخلفات السحرية الدينية في أفريقيا الشمالية**.

إن تركيز المجهودات العلمية لم يَحُل بينه وبيننا ليتحفنا بمعلومات تاريخية، وأثريّة، وليترجم وينشر كتاب **زهرة**

(1) A. Bel, *Histoire d'un Musulman, vivant Actuellement à Meknes*, in R.H.R., 1917.

(2) Ante Mortem.

الآس[1]، وهو كتاب أساسي يحتوي على معلومات قيّمة متعلقة بسنوات فاس الأولى، كما أنه وصف بقايا دار فخمة (القيلا) تعود إلى القرن الرابع عشر مطمورة في بادية تلمسان، أو أثار الانتباه إلى أهمية مساجد بني سنوس.

وجرياً على عادته في المغرب حينما كان مبعوثاً فيه، فإنه لم يكتف في تلمسان بالوصف، بل إنه أوْفى عمله بضمير حي، حسبما يتطلبه شغله العادي، ومهمة مدير الشباب، ومحافظ المتحف الجذاب، هكذا كان يسهر ليلاً، ويشتغل نهاراً، لإنقاذ ما تبقّى من مخلفات الماضي الفني الخاص بتلمسان، ولجعل الأجانب يهتمون بكنوزها، فأسس نقابة للسياحة، وجمعية: "أصدقاء تلمسان القديمة".

ألفريد بيل مُدَافِعٌ عن تلمسان العتيقة، بل يمكن القول: إنه تقمص شخصية المبشر الديني فيها؛ لكن نصرته لها اصطدمت بمصالح، وهيجت عليه أحقاداً وضغائن، ذلك أن مشروع تسوير المقبرة الإسلامية قوبِل بالرفض والاستهجان، وأحدث معركة حامية الوطيس. احترام الماضي الإسلامي لم يَتَفَهَّمْه أولئك الذين هم أَوْلى الناس بالمحافظة عليه.

---

(1) هذا كتاب مهم يعتمده المتؤرخون والأَنَاسِيُّون لدراسة أحوال فاس، انظر: عبد الله العروي، **الأصول**. . . ، ص 111 بالفرنسية.

العالم الذي أحبه ألفريد بيل بأناسه بدأ يتساقط جُزْءاً فَجزءاً. لم يتعرف ألفريد بيل على الأبناء الروحيين للشيوخ الذي عاشرهم، وهو ابن الخمس والعشرين، بل إن ما رآه أن الشباب الذين يلجون مدرسة تلمسان كل سنة، والَّذين علّمهم، لَيْسُوا من طينة أولئك.

6 - إلى دار الهجرة

أو ليس هذا الانفصال المؤلم صراعاً دنيئاً يكاد يصير مأساوياً، بحيث تتواجه الأجيال المتتالية، ولا تتفاهم؟ فآلام الحرب العالمية[1] وانفعالاتها زادت من حدة الصِّدام.

وعلى الرغم من الذكريات التي تربطه بتلمسان، ومن التقدير العميق الذي كان يشعر أنه محاط به، فإن ألفريد بيل قرر الخروج من أرضها، ووجود ابنه في المغرب جَذَبَهُ نحو بلد سبق أن تلقّاه بالأحضان، ومن ثمة كان واثقاً أنه سيجد ظروفاً جديدة للاشتغال. هكذا غادر سكناه الجميلة بعين وانزوطة بأشجارها وبمناظرها الخلابة وبمجاورتها لضريح

(1) الحرب العالمية (الثانية)، إذ تذكر بعض الكتابات أنه تحمّل مسؤولية مدير مدرسة تلمسان (1939-1940) بالنيابة.
Voir, Alain Messaoudi, «Alfred Bel», in François Pouillion (dir), Dictionnaire des ortientalistes de Langue Française, Paris, Karthala, 2008, p. 71-72.

سيدي بومدين، ثم استقر في مهجره في مدينة مكناس، في قلب المدينة العربية، فلم يلبث أن استرجع شَجاعته وفضوله الفكري في السنوات الجميلة التي قضاها بها، إذ كتب «عملت هنا (عمل مدة عشر سنوات»[1]، هكذا تابع عمله في مشروعه الضخم الذي ابتدأه في تلمسان، وهو المعنون بـ"**الدين الإسلامي في بلاد البربر**"، وقد ظهر جزء منه سنة 1938، تناول فيه التطور التاريخي للإسلام في أفريقيا الشمالية، وقد اعتمد في تأليفه على توثيق غَني، وهكذا، فإن معرفة الماضي الديني دبَّت فيها الحياة، واستضاءت بتجربة المؤلف التي هي حصيلة أكثر من أربعين عاماً من الملاحظة اليومية.

وأما الجزء الثاني، الذي كان سيتناول فيه الإسلام المغربي حاضراً، فكان في طور الإعداد بحثاً وتحرّياً وتدقيقاً، باعتماد على مساعدة بعض المكناسِيِّين وتسهيلاتهم، ذلك أن جملةً منهم كانت من أصدقائه الذين هم من قدماء تلامذته، والذين استقبلوه استقبال المريدين الأوفياء لشيخهم المحترم، بل إنَّ ألفريد بيل سرعان ما اكتسب مودة آخرين، ومنهم جاره العالم الجليل شيبة الحمد الذي جعله يتذكر شيوخ مدرسة تلمسان القديمة، فقد وضع الشيخ- الذي كان قاضي المدينة- بين يدي هذا الفرنسي الجزائري ما توافر لديه من معلومات

(1) ويفيد هذا الكلام أنه هاجر إلى المغرب بعد 1940.

متعلقة بالعقيدة وبالتصوف، ومن مخطوطات مكتبته، وكان يفعل كل ذلك عن طيب خاطر.

لما انتهى عمل جمع المعلومات، بدأ كتابة السطور الأولى في مُصَنَّفِه الثاني، لكن الموت داهمه، فعند رجوعه من سفر ممتع تملأ فيه بطلعة حفيده الذي سماه أبوه باسم ألفريد، تدهورت صحته بدرجة خطيرة، وزوجته السيدة مارگوريت كانت تبذل مجهودات في المداواة العاطفية والعملية كلما أَلَمَّ به المرض الطارئ، أو الانتكاس، كانت تلك المجهودات بَلْسَماً شافياً لرفيق عمرها، لكن المرض أعجزها هذه المرة، فتخطَّفه المنونُ هادِمُ اللذات[1].

(1) George Marçais, "Nécrologie"; Revue *Africaine*, Vol. 89, 1980, pp. 103-109.

القسم الثاني

الترجمة

تمهيد

أن نتحدث عن "علم" الترجمة غوص في بحر لُجِيٍّ، إنه حديث يَجُرُّ إلى فلسفة اللغة، وفقه اللغة، وكليات اللغة الإنسانية، وخصائص كل لغة. وإذ يجد القارئ ما يُشْبِع نهمه، بل ويُتخمه، في هذا الميدان الشائك، فإننا سنكتفي بإطلاعه على أسس ترجمتنا لنصوص مختارة.

لقد قرأنا تلك النصوص عدة مرات، فتبين لنا أنها تحتوي على أنواع لغوية عديدة، هي اللغة العادية، واللغة المكتوبة هي لغة الميدان المتحدَّث عنه، وهي لغة أدبية وصفية، وهي لغة أدبية سردية، وقد أدّى بنا هذا التراكم في لغة تلك النصوص أن نقترح أربعة مفاهيم/ مستويات، هي النقل، والترجمة، والتعريب، والتأويل.

- **النقل**

يعني تحويل الشيء من موضع إلى موضعٍ، ونَسْخ الكتاب حرفاً بحرف، أو مفردة بمفردة، أو تركيباً بتركيب،

أي نسخ المقولات ونقلها على ما هي عليه إلى مستند آخر، وقد كانت هذه هي الطريقة المتبّعة لدى النَّقَلَةِ الأوَّلين أيام ازدهار الترجمة، والنقل مفروض في الرياضيات، وفي لغات المواضعات، وفي لغات الإشارات.

• **الترجمة**

تدل على التفهيم والتفسير بوسائل إيضاح مختلفة كالرسم، والإشارة، واستعمال اللغة؛ لهذا فإنها نوع من المحاكاة بما هو معلوم لِما هو خفي كاللواعج، أو التباريح، أو الأشواق التي تترجم إلى أصوات لغوية، وتعابير عينية. ولعل: "ترجمان الأشواق" تعبير عن هذه الحالة. "الترجمة" إذن درجة تختلف عن "النقل" من بعض الجهات، كأن يقع بعض التغيير في الأصل بإضافة بعض المحدّدات أو تقديم بعض المفردات أو تأخيرها، وهي مطلوبة في العلوم التي يُعبر عنها باللغة الطبيعية.

• **التعريب**

حلقة مرتبطة بالترجمة، ويمكن أن ندعوه "بالإعراب"؛ ونعني بهذه التسمية أنه ليس مجرد نقل، وإنما ما يجاوزه إلى توظيف قوانين، وقواعد الفصاحة، والبيان، اللغوية؛ لقد

أفاض في هذا الشأن علم البلاغة، ذلك أنه تحدث عن شروط المفردات، ودور التقديم والتأخير، وأهمية الفصل الوصل، ومراعاة: "لكل مقام مقال". وهذا الصنيع مرغوب فيه لتقريب النصوص إلى القارئ.

- **التأويل**

التعريب حَلْقَة تُسْلِم إلى "التأويل"؛ ونعني به نسج نص مواز للنص الأصلي، مع المحافظة على نواة معناه. إذ تكون هناك إضافات، أو تغييرات. ويجد القارئ مثالاً لهذا في بعض القراءات الحرة للنصوص الأدبية، وفي بعض التأويلات "الْمُغْرِضة"، أو الاِستلذاذ بالنص.

تلك حلقات للترجمة مترابطة يُسلم بعضها إلى بعض؛ ومعنى هذا أنها قد تجتمع كلها في نصّ واحد. يكون "النقل" إذا كان المنقول عبارة عن تَوْصِيف تعليمي: (أطوار صناعة الفخار)، أو تكون "الترجمة" عند الحديث عن: أنواع صناعات الفخار أو المؤلفات. أو يكون "التعريب" وقت: (استدراج الفخارين إلى الكلام أو الحديث عن مناقب الهالِك؛ أو يكون الإلتجاء إلى "التأويل" باقتراح عناوين تضاهي **كَوْن صناعات الفخار** بما هو شائع من أحاديث **عن انتظام الكون**؛ أو: "جزاء سِنِمَّار" لمن فعل الخير.

ينبني هذا التدريج المتداخل على قوانين تحليل الخطاب؛ من بينها قانون تفكيك المفردة إلى معانيها الجزئية لاختيار ما يلائم من تلك المعاني المقام والمقال، وقانون التشاكل لضمان الاِنسجام والاِتساق، وقانون رفض التناقض.

الفصل الأول
لَبَاقَة السياسة

1 - دلائل الوجود

في كل صناعات فاس ما يلفت الانتباه، إلا أنّ أقدمها وأهمها هي صناعة الفخّار والخزف ذات المكانة الدائمة، منذ نشأتها إلى الآن، وقد تحدّث عنها ليون الأفريقي: «بمحاذاة أسوار مدينة فاس هناك صنَّاع اللَّبن، وهناك أفران الجير لِشَيِّ آنية التراب، ويوجد في أعلى الْمَدَيْنَة مكان فسيح تباع فيه الأواني البيضاء مثل الصحون والْجَفَنَاتِ (القَصعَات) والأُصُصِ وما أشبهها»[1].

وصف ليون الأفريقي فاس في بداية القرن السادس عشر، ومن بين ما تعرض له صناعة الخزف، وهي صناعة موجودة في مدينة فاس منذ أمدٍ بعيد تحتل الموقع نفسه الذي فيه الورشات الآن.

كل من يَمُر بمدينة فاس يتعرف على هذا الخزف الْمُلَمَّع، سواء أكان من الزوّار القادمين من خارج المدينة أم

(1) الوزان الفاسي، **وصف أفريقيا**، القسم الثاني، مدينة فاس، ص.246.

من الأوروبيين، لأن حَيّ الفخارين والخزافين، صار مَحَجّاً لكل زائر لفاس.

توجد ورشات الفخّارين والخزّافين مجتمعة داخل السور الجنوبي الشرقي، قرب قَصَبَة تَامدّرت، غير بعيدة عن باب الفتوح[1] على فضاء رحب. يسمّى هذا الحي إلى الآن بِگَرْوَاوَة[2]، التي هي اسم قبيلة بربرية، كان أفرادها يسكنون هذا الجزء من المدينة.

منذ العصور الوسيطة ازدهرت صناعة الطين المشوي في فاس، إذا ما استدللنا بتغليف الجدران الداخلية لمدارس القرن الرابع عشر، وجدران المساجد، ودور الخواصّ. كما وجدتها في أنقاض حي سُوَيْقَة الدَّبان، منها بعض قطع الخزف والزليج الْمُعَبِّرَة عن ذوق رفيع، وهي معروضة في متحف علم الآثار، وفي بهو إقامة الحماية بفاس.

يظهر من جهة أخرى، أن ما نعرفه من آثار إسلامية في تلمسان -مثلاً- وفي المغرب، أن المربَّعات الخزفية التي تُستخدم في ترصيف المساحات، وفي تبليط الغرف، وفي

---

(1) باب الفتوح أحد أبواب عدوة فاس، والفتوح أحد ملوك فاس، ابن زرع، **الأنيس المطرب**، ص 191، وهي منطقة فيها زاوية ومقبرة.

(2) جِرْوَاوَة بها باب شرقيّ: باب الكنيسة، باب الخوخة. **الأنيس المطرب**، ص 49.

تغليف الجدران الداخلية، لما تستخدم إلاّ في أثناء القرن الثالث عشر في الأقاليم الغربية.

هكذا، فإن مؤلف كتاب **روض القرطاس في أخبار مدينة فاس**، المؤلَّف حول سنة 1325[1]، يفيدنا أنه في بداية هذا القرن شَرَع الصنّاع يستعملون المربعات الْمُلَمَّعَة الخزفية على جُدْران البناء.

وأما ما يتعلق بالأشياء الأخرى، مثل الأُصُص، والصحون، والأوعية المختلفة، والقناديل، والمصابيح، فقد لا يشك أحد في أنها كانت تُصنع في فاس منذ زمن طويل، بل قد يمكن أن يفرض المرء أن هذه المصنوعات كانت تعمل في إسبانيا، وفي قلعة بني حمّود قرب سطيف[2]، في أثناء العصور الوسطى، لقد كانت تلك الصحون البهية ذات النور المنعكس، والصوت الرَّنَّان، المعروضة أنواعاً منها، مثيرة لإعجاب من يراها في متحف اللوفر وكلوني[3]، إلا أننا قد ندَّعي أن جامع التحف ليبرت[4] المتوفى سنة 1915 امتلك بعض تلك الصحون الإسبانية الموريسكية.

---

(1) علي ابن أبي زرع؛ وهو الكتاب المشار إليه، انظر مقدمة عبد الوهاب بن منصور للطبعة الثانية، 1999.

(2) سِطِيف: Sétif في شرق الجزائر.

(3) Louvre et Cluny.

(4) Libert.

مجموعة ليبرت (خزف فاس والنحاس والخشب المنقوش) امتلكتها سلطات الحماية، ونقلتها إلى متحف الرباط في ديسمبر 1915، وكانت هذه التحف الرصيد الأول لمتحف الفنون المغربية، ولا يسع المرء إلا أن يأسف على أن هذه القطع الجميلة لم تبق في فاس حتى توقظ ذوق الصناع.

نحن لا نعلم شيئاً كبيراً عن فخّاري فاس، في أثناء العصور الوسيطة، ولا عن تقنيتهم، ولا عن عقود العمل بين رب المصنع والشغّالين فيه، لغياب المستندات والوثائق، كما أننا لا نعثر على مكتوبات في هذا الشأن مثلما نُشِر في إسبانيا الإسلامية من قِبَل جامع القطع الخزفية السيد م. دي وُسْمَا[1].

كل ما لدينا الآن هو شهادات قديمة متعلّقة بالخزف الملمّع الذي يستعمل في التبليط، وتغليف الآثار التذكارية التاريخية، ابتداءً من القرن الرابع عشر، كما أنه لا شيء لَنَا مِن الوثائق حول الصحون القديمة الملمعّة. ذلك أن البورجوازية الإسلامية تفضّل الآن المواعين والأواني المصنوعة من الخزف الصيني على المصنوعات المحلية.

ومع ذلك، فإن المهتم يلفي بعض الصحون، أو الأكواب، أو القوارير التي يعود تاريخها إلى نصف قرن أو يزيد، لقد

(1) نقط على الخزف الموريسكي: Dans ses Apuntes Sobre Ceramica Morisca.

تحدّثتُ سلفاً عن مجموعة ليبرت التي تحتوي على كثير وجميل منها. ومن حسن الحظ، أن بعض الخواصّ يمتلكون قطعاً منها، مثل النقيب ميلير[1] رئيس المصالح البلديّة، وقنصل إنجلترا م. ماك ليود[2]. ويرى المشاهد أنواعاً منها في بهو الإقامة الكبير في فاس، وأمتلكُ مجموعة صغيرة منها.

وما يلفت الانتباه أول نظرة في هذه الأنواع من الخزف - الذي له بعض القِدم- هو وضوح التزيين بالتشجير، أو بالأشكال الهندسية، وما تمتاز به أيضاً هو هدوء الأسلوب، وتناغم الألوان، مثل اللون الرمادي الآسر، واللون الأبيض الناصع، على عكس ما تغص به الأسواق حالياً.

سأرجع إلى سبب انحطاط صناعة الحرف بفاس من جهة تقنية التزيين، متحدثاً عن المواد المستعملة في التلميع والتلوين.

في أفريقيا الشمالية هذه- أي موطن صناعة الخزف- نشأت الصناعة منذ عهد قديم لدى عدد كبير من القبائل البربرية، كمنطقة القبائل في الجزائر، ومنطقة الريف في المغرب، ومنطقة فاس أو مكناس. إن هذا الفخّار الذي هو ذو خلفية بيضاء، وسُمرة مفتوحة، ومتوردة، أو مُنَمَّق بخطوط،

(1) Mellier.
(2) M. Mac Leod.

أو رسوم سوداء داكنة، أو حمراء، تنجزه نساء ماهرات، وهذه التزيينات تذكّر بالفخّار الذي يوجد في جزيرة قبرص، قبل وجود المسيح بألفي سنة، إلاّ أن خزف فاس يمتاز بأصالة ملحوظة، تميّزه عن ذلك الذي في قبرص، كما تميّزه عن الخزفيات في تونس، فخزفها متنوع أيضاً، وينجزه الرجال بواسطة آلة. لكن خزف آسفي ينتمي إلى مجموعة خزف فاس، فيتماثلان في تقنية الصنع والتزيين[1].

2 - نُظُم وتنظيمات

هل يحتاج المرء أن يذكر أن شهر ديسمبر 1914 حدث فيه التماس المجلس البلدي في فاس- المؤلَّف من مسلمي المدينة- من الإدارة الفرنسية أن تؤسس مدارس مهنيّة للعمال الشباب وصناعّ مدينة فاس؟ هذه الأمنية تشرف أعضاء مجلسهم، وتبيّن لنا (الحماية) أن أولئك الأعضاء لهم إحساس واقعي يأخذ في التّقدير الحاجات الملحّة لمدينتهم. فكيف لا نسرع الخطى حينما نُحَفَّز بملمَس حكيم مثل هذا؟!

(1) France - Maroc, Revue mensuelle, Troisième année - N3, 15 Mars 1919; Librairie PLON-NOURRIT.
Les industries de la céramique à Fès, A. Leroux, Paris, Libraire Editeur: Rue Bonaparte, 28.

في رأيي، فإن حلّ هذا المشكل بالنسبة إلى فاس قد يكون كالآتي: من جهة أولى، التميز بين الصناعات التقنية المحلية التي ما زالت حَيَّة إلى الآن، وبَيْن الصناعات التي هي مؤهلة مستقبلاً لأن تعيش في شروط تجارية جديدة، أي تلك الصناعات التي لا تقضي عليها صناعتنا الأوروبية، لذلك فإنه يجب المحافظة عليها بمراعاة خواصهّا، وبتحفيز الصانع على استيحاء النماذج الجيدة التَّزْيِينِيَّة التَّليدة...)، والعمل على تهذيب ذوقه، وعلى استفزاز مواهبه.

من جهة ثانية، الانتباه إلى مجيء جالية أوروبية يزداد عددها يوماً بعد يوم، وهذه الجالية في حاجة إلى منازل على النمط الأوروبي، وإلى آلة الحرث والسيارات والمرْكبات، وهكذا دواليك. وبطبيعة الحال، فإن البناء والأثاث والهياكل الحديدية أو الخشبية محتاجة إلى الترصيص، والترصيف، والإحكام (...).

ومن الحكمة أن تكون اليد العاملة من المغرب، وخصوصاً التي هي من أهل البلد (فاس). يجب- إذن- أن تكون اليد العاملة في عين المكان من الشباب المغربي المنتمي إلى الطبقة العمالية والشعبية، لتقوم بهذه المهن الجديدة بالنسبة إليهم.

فاس ذات 100.000 نسمة، تشمل كل الموارد البشرية التي تتطلبها هذه الصناعات من المتعلمين الذين سيصيرون معلّمين، أو رقباء عمال، أو رؤساءَهم، أو أرباب معامل، ولفاس أيضاً امتياز مهم، هو وجود معمل - مدرسة. ومعامل صناعية ضرورية بفضل صناعة السلاح القديمة، أو ما يسمَّى في فاس "بالماكينة"[1] التي كانت تدير شؤونها بعثة إيطالية إلى حدود 1915، وكان يشتغل فيها عمال مغاربة مؤهلون، كوَّنتهم البعثة الإيطالية. ولما انتهى عقد الإيطاليين[2]، عاد تدبير أمر هذه الماكينة المهمة إلى المخزن، لكن إلْحَاحَنَا عليه اضطره أن يسلمها إلى إدارة التعليم في 1916، لتصير معملاً - مدرسة (...).

وأما ما يتعلّق بصناعة الفن المحلّي الخالص، فسأكتفي الآن بما قلته سابقاً بشأن صناعة الفَخَّار.

في صيف 1914 كان النقيب ج. ميللي[3] رئيس المصالح البلدية المشار إليها سابقاً، قد قام بمبادرات خَيِّرة، فنظّم مسابقة للتحفيز على المنافسة بين أرباب معامل الخزف المتعدد

---

(1) La Makina.

(2) ما قاله المؤلف بعكس التنافس بين القوات الأوروبية على الاستئثار بالمغرب، وبداية الحماية في فرض رؤيتها.

(3) Millier.

الألوان، وقد أبان الصنّاع عن كثير من الإرادة الحسنة، فحاول كل واحد منهم أن يتميز على غيره، إلا أنهم لم يوفّقوا أحياناً بسبب الرغبة في إرضاء ذوق الأوروبيين، فابتعدوا عن النموذج التزييني التقليدي (...).

في سنة 1915، اتّجه العزم على أن تُرَمَّمَ بعض القطع الخزفية الحائطية للمدرسة البوعنانية[1]. وتبعاً لهذا، بدأ البحث عن بعض النماذج القديمة، وخصوصاً ما كان لونه مزيجاً من الزرقة والرُّمْدة (لون السِّنْجَاب)، ولهذا اّتصلت مصالح الفنون الجميلة برئيس حِنطة الخزّافين، وقدمت له نماذج ليصنع على شاكلتها فأنجزت، فكانت النتيجة سارّة (...)، وهذا يدل على أن الصنّاع يَعْلَمُون نَماذج جيدة، ويحسنون تطبيقها حينما يريدون.

وأخيراً غادرت فاس في 1916، لكن السيد ريكار[2] مفتش التعليم الصناعي والفني بالجزائر، جُنِّد في أثناء الحرب العالمية الأولى، فاستقرّ في فاس، وتولى مصالح الفنون الجميلة في المغرب؛ اهتم بهذه الصناعة وبالأدوات المستعملة ليجعلها مُزْدَهِرة في إطار التقليد التَّليد، خَزَفِيُّو فاس وغيرهم

(1) الحسن الوزان الفارسي، **وصف أفريقيا**، ص 225-226. فقد جمعت من المزيّنات ما تفرّق في غيرها، ص 266.

(2) M. Ricard.

من الصناع الآخرين استفادوا من نصائح هذا المختص العالم بِخَبَايَا الصناعة المحلية وبصناع أفريقيا الشمالية (...).

في هذه الظروف يمكن افتراض أن صناعات الفخار في فاس مدعوة إلى أن تحيا في المستقبل كما عاشت في الماضي، وحافظت على بقائها، وعلى ازدهار مآلها. هذه الصناعات تتطور بأشكال مختلفة بلا ريب. فقد تطورت صناعات الفن والخزف، إلى أن وصلت إلى مستوى محترم، وكذلك صناعة الصحون، والأواني، والقوارير، والمطلِيَّات الملوَّنة، على أن بعض الصناعات الأخرى تكيّفت مع الظروف الجديدة، مثل صناعة المربّعات الخزفية (الآجر، الزليج). إن صناعة المربعات هذه يجب أن تتحول وتغيّر جلدها للمنافسة المنتظرة مع المربَّعات الفرنسية التزيينية، ومع الأسف فقد استُعملت المربعات الفرنسية في تزيين بعض دور البورجوازية الإسلامية في العاصمة الإدريسية. لهذا يتعين بأقصى سرعة ممكنة أن تُعدّ مربعات أكبر ذات رسوم هندسية متعددة الألوان من أجل تَكْسِيَة الجدران، شبيهة بالفسيفساء الخزفية القديمة، إلا أن الفسيفساء مرتفعة الثمن على الزبائن، حتى الأغنياء منهم، مما جعلهم يتخلّون عنها.

وأما ما يتعلق بالفخّار، سواء أكان طبيعياً أم مَطْلِيّاً، فإنه ما برح يُستعمل دون تغيير كبير، لأن منتجات هذه الصناعة

تستجيب لمتطلبات الزبائن البلديين، وحاجاتهم التي استمرت على حالها، على الرغم من وجود الحماية، ومن ثمة لم تنافس تلك المنتجات، لثمنها المنخفض، وللمنافع التي تَنْتُج عن صناعتها في عين المكان، كونها أشياء هشة وضخمة، وإذا الأمر هكذا، فإنّ نقلها إلى مسافات بعيدة يكاد يكون مستحيلاً.

(...) عناصر هذا العمل جمعتُها بنفسي في عين المكان في أثناء مقامي في فاس من مارس 1914 إلى أغسطس 1916، وقد كنت أقضي أوقاتاً طويلة في مصانع الخزف مُحَدِّقاً في كيفية اشتغال العمّال، ومتحدثاً معهم، فتعلّمت منهم، وتعرفتُ على عاداتهم في العمل.

في بداية زيارتي للمصانع، أظهر العمّال وأرباب المعامل احترازهم، وتحفّظهم في إجابتهم عن أسئلتي. اعتقدوا أنني أجمع معلومات على صناعتهم لإقامة معملي الخاصِّ لإنتاج الخزف، وللمنافسة معهم (...)، إلا أنه بعد أيام قليلة عَلِمُوا جميعهم أنني لست منافساً لهم، لكنني مجرد أجنبي يريدَ أن يعرف ما يتعلق بصناعتهم، وأن يُسَجِّل انطباعاته كما كان يفعل الرحّالة المسلمون في العصور الوسطى (...)، وبعد هذا صرنا لا نتحدث فقط عن عملهم، لكنني شرعت أخبرهم عن الحرب الأوروبية[1]، ومستجداتها، وعن الكهرباء التي

(1) الحرب العالمية الأولى.

أضاءت بعض أزقّة مدينة فاس، وعن سكة الحديد التي ربطت بين فاس والمحيط (طنجة - فاس)[1]، وعن مسلمي البلدان الأخرى، وخصوصاً مسلمي الجزائر، وعن فرنسا أيضاً وصناعاتها، إلى غير ذلك من القضايا التي كانوا يهتمون بها (...).

أرباب العمل وعمّال الطين المشوي يتجمّعون في حِنطات[2] (اتّحادات) ككل الصناع التقليديين، وبحسب صنف الصناعة الخزفية التي ينتسبون إليها، فإنهم كَوَّنوا ثلاثة اتحادات: اتّحاد الياجوريين (صناع الآجر)، واتّحاد الحراشة (صناع الفخّار)، واتّحاد الطولية (صناع الخزف)، إن هذه الاتحادات الصناعية تطابق الحنطات التي سأدرسها في ثلاثة أجزاء سَتَنْقَسِم إليها هذه الدراسة.

كل واحد من هذه الاتّحادات- كشأن الاتّحادات الأخرى- يكون على رأسه أمين (...)، وأمين كل اتِّحادٍ ينتخبُه زملاؤه من أرباب المعامل، والعمال، بأغلبية الأصوات المعبّر عنها بصوت مرتفع، وبحضور المحتسب[3]، أي مراقب التجّار الذي يحضر عملية الانتخاب دون الإسهام فيها، وفي حالة ما

---

(1) كثير من العامة يطلقون على أي قطار: Tanger -Fas.

(2) Corporation.

(3) كُتب على المحتسب والحِسْبة كتب كثيرة، وخصوصاً في الأندلس.

إذا تساوى المترشحون في الأصوات، فإنه يُلْجَأ إلى الاقتراع (إجراء القرعة)، ومن يخرج اسمه الأول، يصبح فائزاً.

بِمجرد ما يُنْتَخَبُ الأمين يتقلّد وظيفته، ويستمر فيها إلى أن يموت، أو يقدّم استقالته، بيد أن أعضاء الاتّحاد يمكن أن يعزلوه إذا لم يقم بأمانته على أحسن وجه، بتصويت استثنائي، ثم يعيّنون بديلاً له.

اختصاصات الأمين تتعلّق بشأنين: شأن تقني، وشأن قضائي، الشأن التقني يراقب جودة منتجات المعامل الموجّهة إلى التسويق، ومن معايير الجودة المحافظة على تقاليد الصنع المتقن، وعلى إرضاء الذوق الرفيع، إلا أن الأمين لا يهتم بمراقبة عمل زملائه بمقدار ما هو منشغل بما هو خاص به في مصنعه، لأنه يَعلم أن كل واحد منهم يُجَوِّدُ صناعته بقدر ما يستطيع.

وأما الشأن القضائي، فيهتم به لَمَّا يتظلَّم زبون، فيرفع شكوى متعلقة ببضاعة مغشوشة، وحينئذ فإن الأمين هو من ينقلها إلى رب المعمل. وكذلك الشأن حينما يحصل نزاع بين رب المعمل والعامل حول الأُجْرَة، أو عقد العمل، أو مقدار الشراكة، وبطبيعة الحال، فإن المختص بهذه المشكلات هو القضاء، وإذا ما حاولتُ أن أكون جرِّيئاً في التعبير، فهو الأمين.

ومع ذلك يجب التنبيه إلى أنَّ هذه النزاعات- وإن كانت من صميم اختصاصات الأمين- فإن سلطته في فضّها جِدُّ محدودة. حقاً يستطيع- بتراضي الخصمين- أن ينطق بالحكم منفرداً، لكن ما يحدث لا يكون غالباً على هذا السبيل، وها هو الإيضاح: يَسْتَدْعِي الأمين الخصمين اللَّذين اختصما، ويدعوهما إلى اصطحاب حكمين معهما- أو حُكَّاماً- بمحض إرادتهما، واختيارهما. وهكذا يتكوّن ما يشبه هيئة المحكمة القضائية المتعارف عليها، ويكون رئيس المحكمة الأمين، فيستمع إلى المتخاصمين، والشهود.

تَبُتُّ هيئة التحكيم بأغلبية الأصوات، ويحضر الجلسة الخازن ممثلاً للباشا، يكون تحت أوامر الأمين، وإذا حُكم على أحد الخصمين بمخالفة وقبل، قضي الأمر، وأما إذا رفض، فإن الخازن يأخذه إلى الباشا، فيعنّفه لِيُجْبِرَه على تنفيذ حكم المحكمة، وقد يحكم عليه بالسجن، فيحسبه الباشا مدة الأيام المحكوم عليه بها.

تتأسس **الحنطة** على ترتيب خاص: متعلّمون، ومعلّمون، وأرباب العمل. هذا الترتيب شبيه باتّحادات النظام القديم في فرنسا، وليس وجه الشبه هذا إلا واحداً من بين (أوجه كثيرة) بين المجتمع الإسلامي المغربي وبين المجتمع الفرنسي في العصور الوسطى (الحكومة الفرنسية قبل ثورة 1789).

ثقافة فخّاري فاس، وأغلبية العمال، محدودة جداً، بل تكاد تنعدم، إذ إن أغلبهم لا يكتب ولا يقرأ، ومردّ ذلك إلى أنهم يشرعون في العمل، وهم في سن مبكرة، وهذا الوضع يعوق ولوجهم إلى المدرسة، إلا أن نَزْرَا يسيراً منهم قد يرتاد الكتاب لحفظ سُوَرٍ من القرآن إلى غاية ثماني سنوات أو عشر، وهو غالباً ما يكون من أبناء أرباب المعامل، ثم ينقطع عن الكّتاب للاقتصار على حرفة الأب، ذلك أن صناعة الخزف ميراث عائلي، ينتقل من سلف إلى خَلَفٍ.

كثير من هؤلاء الصنّاع لهم نِيَّةٌ خالصة لتعلم اللغة الفرنسية، نطقاً أولاً، ثم كتابة، ولذلك، فإني مقتنعٌ بأن تلقين دروس خاصة بالكبار، ليلاً، مصحوبة بوسائل إيضاح، وبعض مبادئ الحساب، سيكون لها أعظم الفوائد، بشرط أن يقوم بها مُعَلِّمون مؤهلون، ومنها تسهيل التواصل بين الحماية، وبين الصّناع، ورفع مستواهم المهني.

لصنّاع الخزف في فاس أوقات فراغ بعد العمل الذي ينتهي بحلول صلاة العصر، ما عدا أيام شَيّ الطين في الفرن، ومعلوم أن ما بين صلاة العصر وصلاة المغرب ثلاث ساعات كاملة، وهذا الوقت يتيح أن يتعلم فيه من أراد.

فلكلور (الثقافة الشعبية) الفخّارين والخزفيين فقير جدّاً، إذ ليس لهم وقت لِلَّهْو بتلك الخرافات التي تُثير إعجاب كثير

من سكّان أفريقيا الشمالية بصفة عامة[1]، ذلك أن الشغل يستغرقهم، كما أن المصنع الواحد يشتمل على عمّالٍ ذوي أعمار مختلفة، ابتداء من الأطفال والمراهقين من متعلمين ومساعدين يسيرون ذاهبين راجعين في مكان العمل، إلى الصنّاع (الْمَعَلْمِين) فإلى أرباب المصنع الذين ينشغلون بِخِرَاطَة القطع وتزيينها (الرسم على القطع بعد تفصيلها)، ونظراً لاختلاف أعمارهم، ووظائفهم، تباينت أدوارهم وأذواقهم، وظلت حواراتهم مقتصرة على الجوانب المادية لحرفتهم. والغريب أن المتعلّمين في معامل الطين الْمَشْوِيّ ليس لهم شيء من تلك الأهازيج الخاصة بالصناعات التقليدية[2].

(1) يشير إلى ما يُدعى (الحلقة) التي ما زال لها وجود، وخصوصاً ساحة جامع الفناء في مراكش.

(2) Cinquantenaire de la Faculté des Lettres D'Alger, Articles publiés par les Professeurs de la Faculté, Par les soins de la Société Historique Algérienne, 1932.
Revue Africaine, vol. 89, 1945.
Kraus Reprint, Nedeln/Liechtenstein, 1980.

خلاصات وآفاق

الحديث عن المستشرقين في بلادنا العربية (والإسلامية) يثير كثيراً من اللغط، ذلك أن زمرة من مثقفيها ينظر بعين الحذر والريبة إلى ما أنجزه المستشرقون، لأنهّم يعتقدون أن أبحاثهم لا تخلو من أن يكون فيها نصيب كبير من الهجوم على حضارة الإسلام وثقافته. لكن قلّة قليلة منهم ترى في أبحاث المستشرقين عودةً إلى أساليب البحث الرصينة التليدة، وفتحاً منهاجياً يهدي الباحثين العرب والمسلمين ليسيروا في طرقه المستقيمة.

ما بين أولئك وهؤلاء أطياف ترى أن المستشرق وليدُ بيئته التي هي مليئة بالعلوم والثقافة. وإذ إن الأمر كذلك، فمن المستحيل أن يبحث- وهو نَاسٍ كل ما تعلم- مُحدِثاً معه قطيعة، فإذن لابد أن تبقى بقية مترسخة في ذهنه، تلك هي المبادئ التي تتعالى عن الخصوصيات، فيسعى إلى توظيفها في دارسة الثقافات والحضارات الأخرى. ويكفينا نحن هنا أن نحتفي بهم ونكتب عنهم.

لقد وجد المقترح هوىً في أنفسنا فتمكَّن، فاخترنا

شخصية فرنسية تستحق الاحترام والتقدير والتبجيل، وما تلك الشخصية إلا ألفريد بيل، فاتّخذناها محوراً لتقديم آرائه إلى القراء، مُراعين الإبدال الفكري/ (إبدالات) الذي ساد في القرن التاسع عشر والمنتصف الثاني من القرن العشرين. هكذا راجعنا كثيراً من الأطروحات التي كانت متداولة، ولا تزال باستيحاء مما كتب، على أننا ركزنا على ثلاث منها، هي أطروحة القبيلة، وأطروحة العقيدة، وأطروحة الشريعة، وقد اعتمدت مراجعاتنا على قراءات جديدة لعلم الأصول، وعلم وضع القوانين الأساسية، وعلم اللسانيات، وعلم أصول المعرفة، وعلم الأناسات والتاريخ.

في القبيلة آداب غزيرة تناولت الاسم العام، وتفرعاتها، وأصلها، ونظريات اشتغالها، وأدوارها. وقد تبيّن لنا من خلال ما قرأناه أن هناك كثيراً من الأغلوطات في ذلك التناول، والأغلوطات هي أن خواصّ القبيلة هي الترحل الدائم للبحث عن الماء، والمرعى، والنهب، والسلب، في حين أن قبائل وُصفت بهذه الصفات أسست دُوَلاً عظيمة في العصور الوسيطة والحديثة، مثل المرابطين والعرب الهلالية، ومثلها ما في المشرق، وأغلوطات التعميم الْمُخِلّ، ذلك أن القبائل المذكورة كانت لها قرى، ومدن، ولها صلات وصل برية، وبحرية بأمصار أخرى، وأغلوطة سوء التفسير لما ورد

في القرآن حول الأعراب. ذلك أن هذه الأغلوطات هي ما شجعنا على اقتراح التشبيه الآتي: **القبيلة جسد**، لما للجسد البشري من أدوار في تحصيل الإدراك، والمعرفة، وإنشائها.

في العقيدة سيول غامرة من الكتابات، إلا أن ما اقْتَصَرْنَا عليه هو الغرب الإسلامي، ذلك أن لحظة تأسيس الدولة المرابطية، والمحيط الجغرافي، السّكان الذين هم من نوع خاص، جعلت متعلّمي المغرب (مقابل المشرق) يحصّنون أنفسهم من مغبّة الاختلاف والخلاف، فنبهوا إلى عقابيل علم الكلام، والفلسفة، والتصوف الشعبي... وكل العلوم المدخولة، فابن رشد بَيَّن التأثير الهدام للتفكير الكلامي اللاعقلاني، وابن خلدون وابن الخطيب حَذَّرا من كل ذلك محافظةً على سلامة العمران البشري. وقد ركّز كل أولئك على وحدة الأمة الجامعة بين العصبية والدين، ووحدة السلطة بالبيعة.

في فقه مالِك الذي هو مزيج من العَرِيفَة والشريعة، تعنِي "العَرِيفَة" ما يتكرر من أفعال وأعمال، حتى تُعرف عند الناس وتُشهر، وتتلقّفها خاصتهم من سَدَنَة الْعُرْفِ، ليراقبوا مدى ملاءمتها للطبيعة البشرية السويَّة، فَيُبْقي عليها، وأما إذا وقع انحراف في بعض مكوناتها فإنهم يصلحونها، وعليه فإن الشريعة إصلاح للموجود من الأعراف لا نَسْخٌ له، وتَوق

للإكمال والإنصاف. لهذا نجد في كتب الأصول: الشرع مبني على العادة، وشرع من قبلنا شرع لنا...

اخترنا الأطروحات الثلاث التي شغلت ألفريد بيل وزملاءه، وبيّنا موقفه من كل واحدة منها، رأى أن القبائل اندمج بعضها في بعضٍ، منذ القرن الثالث عشر، فكوّنت دولة الموحّدين ثم المرينيين؛ وتبعاً لهذا، فليس هناك جوهرٌ قبليّ، وإنما نمط الحياة الذي في صيرورة سرمدية هو الْمُنَقِّل من وضع إلى وضْع، ومن حال إلى حال، ومن طور إلى طور.

أكد أن الدولة المرابطية هي من وطدت أركان الفقه المالكي، وعمل أهل المدينة أصولاً وفروعاً، بوساطة أسماء مشهورة مذكورة، مثل أبي عمران الفاسي، وعبد الله بن ياسين، وابن القاسم، وأشهب، وقد سَهَّل انتشار المذهب المالكي ومصالحه الْمُرْسَلة المستوى الاجتماعي (تعدّد القبائل)، والعامل الجغرافي (أرض خصبة وأخرى قاحلة مَاحِلة)، والقوى الاقتصادية (سكان المدن والبوادي)...

إن الدولة المرابطية هي من قضى على العقائد الوافدة من المشرق، وعلى العقائد المتطرفة، لكن بعض عقائدها تعايش مع التدين الشعبي الذي يتأسس على الأساطير، والخرافات، وعبادة الأولياء من الأحياء، وتقديس أضرحة المتوفّين منهم.

ألفريد بيل رجل مُوَافقاتٍ ومصالحات في جميع مناحي الحياة، فهو يحترم الدين الإسلامي السُّنِّي، لكنه لا يَرْضَى عَمَّا علق به من الشوائِب والأوصاب، وهو يقول بالعُرف، لكنه لم يُوَرِّط نفسه في الدفاع عن الظهير البربري، ومع ذلك فإن اعتداله لم ينفعه لِتنامي المدّ الإسلامي السلفي الذي يعادي كل من ليس على دينه، وخصوصاً بعد تأسيس جمعيات دينية ومدنية تدافع عن هوية الإسلام وحضارته.

تلك قراءة واقعية، لكننا الآن سنحاول أن نقترح قراءة "افتراضية"! هكذا سنحاول أن نُؤَوِّل الثالوث المذكور في إطار: «منطق كما لَوْ (comme si) F، (ASIF) E»، وذلك للانتقال بالعالم العربي القديم والوسيط إلى العالم المتقدم الحديث والمعاصر.

القبائل، والدين، والأمة، والتناوب، والبيعة، "كَمَا لَوْ" هي الأحزاب والنقابات والبرامج السياسية والمواطنة.

علم الكلام الذي هو: «الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة، والرَّدُّ على المبتدِعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السُّنة»، «كما لَوْ» أنه الحجاجُ عن العقائد الحزبية والإنجازات العملية للرَّدِّ على الخصوم السياسيين المناوئين لمصالحنا في المحافل الدولية، سَيْراً على هَدْيِ أسلافنا كابن رشد وابن الخطيب وابن خلدون الذين نبهوا إلى مضار علم الكلام.

الشريعة المطلقة الرافضة لكل تجديد، الْجَابَّة لِما قبلها، والمبطلة لِمَا بعدها، «كَمَا لَوْ» أنها وليدة سياق، ونتيجة اجتهاد تنويري يقول بالوسطية.

«منطق كَمَا لَوْ» يتطلب شروط وجود، لعلّ أهمها:

أولاً: رؤية شاملة عن العالم الذي نتوخَّى السير نحوه والعيش فيه، وتحليل دقيق لفهم ما يجري بِهِ.

ثانياً: تأويل جديد لتراثنا التليد المركب من عناصر تراث أمَمٍ وحضارات أخرى، لنتخلّى عن مركزيّتنا القاتلة، ونرجسيّتنا المتعالية.

ثالثاً: إعادة النظر في الكتب المدرسية الدينية، من حيث الحرص على التدرج من الأبسط فالبسيط فالمعقد فالأعقد إلى ما فيه جَدَل وخِلافٌ عَالٍ، وفي كتب التاريخ التي يجب تنقيتها من الأساطير والخرافات، ومِمَّا فيها من حقد وبغضاء وتعصّب.

في ضوء المناهج المعاصرة، ونبراس المراجعة الحصيفة درسنا مؤلفات ألفريد بيل الفرنسي المستشرق الْمُخَضْرَم الذي حُمِّل مسؤوليات سامية، فَحَمَلَها بلباقة سياسية، وكياسة علمية، لا بمركزية أوروبية مُتَعَجْرِفَة.

المصادر والمراجع

1 – العربية

- علي الإدريسي، **العقل المغارِبي في ضوء ثقافته**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2019.
- علي بن أبي زرع، **الأنيس المطرب، بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية، ط ثانية، 1420هـ/1909.
- عبد الأحد السبتي، **التاريخ والذاكرة، أوراش في تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1912.
- محمد مفتاح، "**درجات الأيقون وترجمة الشعر**"، **في الترجمة والتأويل**، منشورات كلية الآداب – الرباط، 1995.
- محمد مفتاح، **التلقي والتأويل. مقارنة نسقية**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1994.

- محمد مفتاح، **النص من القراءة إلى التنظير**، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2016.
- محمد مفتاح، **وحدة الفكر المتعددة. قراءة جديدة في الأصول**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2016.
- محمد مفتاح، **المعنى والدَّلالة**، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، 2016.
- محمد مفتاح، **فلسفة النقد**، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء (تحت الطبع).
- **معاجم عربية**.
- الحسن بن محمد الوزان (ليون الأفريقي)، **وصف أفريقيا**، ترجمة عن الفرنسية محمد ججي/ محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط 2، 1983.

2 – غير العربية

- Alfred Bel, *Les Industries de céramique à Fès*, Alger, Carbonol. Paris, Leroux, 1918.
- Alfred, Bel, *La Religion musulmane en Berbérie*, tome I, Etablissement de l'Islam en Berbérie du VII^{é} au XX^{è} siècle, Paris, Geuthner, 1938.
- Alfred, Bel, La Djazya, chanson arabe, précédée d'observation sur quelques légendes arabes et sur la geste des Beni Hilal, in J.A. (Journal Asiatique), Paris, Imprimerie Nationale, 1902-1903.
- Alfred, Bel, *Les Lacs d'Algérie, chotts et sebkhas*, mémoire présenté au Congrès des Société de géographie, Oran, 1902.
- Alfred, Bel, Une conférence sur la poésie arabe antéislamique, in *B.S.G.O.*, avril-juin 1906.
- Alfred, Bel, Coup d'œil sur l'islam en Berbérie, in *Revue de l'histoire des religions*, jan-fév, 1917.
- Alfred, Bel, Sidi Boumediene et son maitre Ed-daqqaq à Fèz, in Mélanges René Basset, Paris, Leroux, 1923.

- Alfred, Bel, L'Islam mystique, in *R.A*., n° 334, 1è trimestre, 1928.
- Alfred, Bel, La fête des sacrifices en Berbérie, in Mémoires, publiés à l'occasion du cinquantenaire de la faculté des lettres, d'Alger, 1932.
- Alfred, Bel, Le Soufisme en Occident musulman au VII^{è} at au XIII^{è} siècles de J.C., in Annales de l'institut d'études orientales d'Alger, 1935.
- Kenneth L. Brown, Les Gens de Salé. Les Slaouis, traditions et changements de 1830 à 1930, Casa, Eddif, 2001.
- Jean-François Dortier, Le Dictionnaire des sciences Humaines, Delta, 2007.
- A. Alaroui, Les Origines sociales et culturelles du nationalisme Marocain (1830-1912), F. Maspero, Paris, 1977.
- George Marçais, «Alfred Bel», in *Revue Africaine*, vol 89, 1980.
- Antonia Soulez, Manifest du cercle de vienne et Autres écrits, Vrin, Paris, 2010.